الفصل الرابع

مقالات في التربية والتعليم[1]

أولاً: العلم نور

الحمد لله نور السموات والأرض، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث بالنور رحمة للعالمين، وبعد:

فإن الحياة الدنيا لا تستقر على حال، ولا تثبت على ملوان، وهذه سنة الله تعالى في الكون، الذي يتبدل ويتغير، وسبحان الله الذي لا يتغير ولا يتبدل.

وفي كل مساء تغيب الشمس في مغربها، فلا يطول الليل حتى يطلع الفجر، ثم تطلع الشمس من مشرقها، ليبدأ يوم جديد، وحياة جديدة، ونشاط جديد.

والناس كل الناس يسهرون بعد صلاة العشاء ويطفئون الأنوار، ثم لا يلبث الفجر إلا أن يبزغ نوره، فيستيقظون، ويؤدون صلاة الصبح، ثم تسطع

---

(١) انظر مقالات أخرى تتصل بالموضوع، وصنفت في فصول لاحقة:
- التربية المستمرة في الصيام = فصل ٨ في العبادات.
- الوقف والبحث العلمي = فصل ٩ في المعاملات.
- الصيام يعلم تنظيم الأعمال ويدرب عليه = فصل ٢٠ في المناسبات.
- الإسلام والمعاصرة في العلوم الشرعية = فصل ١٨ في المحاضرات.
- المعاهد الشرعية والجامع والموسوعات الفقهية = فصل ١٨ حوارات.
- طرق تدريس اللغة العربية والإسلام في كتابنا محاضرات ثقافية وفكرية ص٣٨١.
- قبسات في التربية في كتابنا «موسوعة قضايا إسلامية معاصرة» ٤١٧/٦.

الأنوار، ليؤوبوا إلى نشاطهم وأعمالهم ويخرجون من بيوتهم.

وفي مطلع كل صيف يؤدي ملايين التلاميذ والطلبة الامتحانات النهائية، وتظهر النتائج، وتغلق المدارس والجامعات، ويغدو الجميع إلى مباهج الصيف وراحته وشجونه وأسفاره، ثم يهل الخريف لتعود الطيور إلى أعشاشها، وتتكاثف الأسراب على مختلف وسائل المواصلات، ليأوي الجميع إلى منازلهم، ثم تفتح المدارس والجامعات أبوابها، وتستقبل أبناءها وأحبتها وملائكتها وأهلها، ويتجه الجميع إلى مقاعد الدراسة لينهلوا العلم، ويتزودوا بالثقافة، ويغبوا من المعرفة، ويشحذوا الأذهان، ويغذوا العقول، وتبتهج القلوب بالنور الجديد.

إنها سنة الحياة المتفقة مع الفطرة، الملبية لنداء الحق ودعوة الإسلام بطلب العلم الذي جعله رسول الله ﷺ فريضة، فقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» لأنه استجابة لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] لأن العلم بحر لا ساحل لـــه، ويجب السؤال عنه لقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ولأن السؤال مفتاح العلم، ليصل طالبه إلى الدرجات العليا التي بوّأها الله تعالى للعلماء، فقال عز وجل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ثم حثّ الفكر للمقارنة بين العلم والجهل، والعلماء وغيرهم، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٦] ليتربع العلمـــاء على عرش المعرفة، ويلتزموا مشاعل العلم، ويتسموا بنور التدريس، ليشع ضوؤه على الأمة والمجتمع والأمة، دون أن يعبؤوا بالحسد والعداوة والعقبات التي تعترض طريقهم.

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهـــمُ على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدْر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعـــداء
ففز بعلم تعش حياً بـــه أبـــداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

وهكذا تنطلق مواكب النور في المدارس والجامعات، ليتجدد اللقاء، وتحيا المجالس بشعاع المعرفة، وتضيء قاعات الدرس مصابيحها، وينهل الطلبة من معين المعلمين والمدرسين، ويحظى أعضاء هيئة التدريس بالثواب والأجر لقيامهم بواجباتهم، وتبليغ الدعوة التي حملوها، والرسالة التي ائتمنوا عليها من الله تعالى، ومن المسؤولين في الدولة، ومن أولياء الأمور الذين سلموا لهم فلذات أكبادهم، ليسقوهم بالشهد والعلم والأدب والأخلاق، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] والله من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: الضوابط المنهجية في تحصيل العلم[1]

ديننا دين العلم، ولا يوجد تشريع في العالم، ولا قانون ولا ديانة سماوية أو وضعية أو أرضية، كرمت العلماء ودعت للعلم كما دعا إليه الإسلام، وجعله مرتبطاً بالعقيدة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فمن هنا يأتي دور العلم ومكانته في الأمم، وإذا نظرنا إلى الواقع والحياة، لنرى أن العالم ما تقدم اليوم، ووصل إلى ما وصل إليه، إلا عن طريق العلم، ومن هنا نتألم أننا متأخرون علمياً في عصرنا الحاضر، بل إننا مسئولون أمام الله سبحانه وتعالى على هذا التأخر العلمي في جميع العلوم والفنون، ومن هنا نقدم بعض النصائح لطالب العلم، لعله يسترشد بها، ويحرص عليه، ليحصل على النتائج الطيبة، ويفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، ويكون عمله جهاداً في سبيل الله، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم.

١- إخلاص النية:

فأول نصيحة لطلب العلم هو أن يخلص العمل لله، ويخلص طلب العلم لله، بأن يكون طلبه للعلم مرضاة لله واستجابة لدعاء ونداء الله سبحانه وتعالى، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له، ومن هنا كلما كان الإخلاص في العلم لله كلما كان ذلك أقرب إلى التقوى، ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فالتقوى هي الوسيلة إلى العلم وزيادة العلم، ولأن العلم واسع ولا حصر له،

---

(١) الفتح- العددان ٦٥/٦٦- ذي الحجة ١٤٢٦هـ/ محرم ١٤٢٧هـ.

ولذلك فإن فوق كل ذي علم عليم، كما يقول ربنا سبحانه وتعالى في الدعاء، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

٢- المواظبة على طلب العلم:

المواظبة على طلب العلم والاستمرار في طلب العلم وعدم التوقف عند نقطة محددة أو التكاسل في طلب العلم وهذا نوجهه أيضاً لطلاب المدارس سواء كانوا في الروضات أو المدارس الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية، أو الجامعة، بأن يبذلوا الجهد الكافي، ولا يضيعوا شيئاً من أوقاتهم، فكما يقول المثل: (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك) وإن العلم بحر لا ساحل له ولذلك قال الشاعر:

ما حوى العلم جميعاً أحد لا ولو حصله ألف سنة

ومن هنا قال علماؤنا أيضاً فضيلة أخرى أو حكمة أخرى: (العلم إذا أعطيته كلك أعطاك جزءه) لأن العلم واسع فمهما تبذل له يقبل وينتج، من هنا ننصح بالانكباب على طلب العلم، والاستفادة من الوقت؛ لأن رسول الله ﷺ يقول: «اغتنم خمساً قبل خمس» ومنها «فراغك قبل شغلك» بأن يستفيد الإنسان من وقت الفراغ لطلب العلم لما يفيد في الدنيا ولآخرة، ولذلك كان سلفنا الصالح يحرصون على طلب العلم من الصغر إلى الكبر، ومن المهد إلى اللحد، وكانوا يطلبون ويسألون ويستفتون، حتى قالوا (السؤال مفتاح العلم) و(اثنان لا يتعلمان مستحٍ ومتكبر) فهذه دعوة للسؤال، وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فاسألوا: فعل أمر، والأمر كما يقول علماء الأصول: الأمر للوجوب، فسؤال العلم واجب.

ومن هنا يجب على طالب العلم أن يبحث عن كل الوسائل التي يستفيد

منها من أجل الزيادة في العلم، وهذا العلم كما ذكرنا بحر لا ساحل له، وكلما جمع الإنسان علماً استفاد هو أولاً، واستطاع أن يفيد غيره ثانياً، ويرتاح في حياته ثالثاً، أما إذا قصر وضيع جزءاً من أوقاته فإنه سيندم في المستقبل، ويحتاج إلى جهود أخرى كثيرة من أجل أن يحصل ما فاته سابقاً.

٣- اقتران العلم بالعمل:

ومن هنا النصيحة الأخرى وهي الجمع بين العلم والعمل، إن العلم وحده لا يكفي، وقد يكون العلم وبالاً على صاحبه، وحجة عليه، ولذلك فإن الثمرة الأساسية للعلم، والهدف الأساسي للعلم، ليس من أجل المباهاة ولا من أجل المعرفة بحد ذاتها، ولكن من أجل التعليم من جهة أولاً، وتطبيق هذا العلم ثانياً، ولذلك فإن القرآن الكريم جمع في كثير من الآيات بين الإيمان والعمل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] فطالب العلم إن بحث ودرس وجمع العلم فيجب أن يطبق هذه الأحكام والأمور التي تعلمها على نفسه، وخاصة الإكثار من العبادة والطاعة، وذكر الله سبحانه وتعالى، والدعاء أن يفتح الله عليه، وأن يعطيه علماً نافعاً في ذلك، ثم يمارس أحكام العبادات ليكون على صلة بربه، ويجمع بين خيري الدنيا والآخرة، ويكون له ثواب في العلم الذي هو عبادة في حد ذاته، ويعتبر العمل الذي يؤديه عبادة، ومن هنا عندما نسأل كثيراً، حتى في ليلة القدر، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا إياها في شهر رمضان، وأن يبلغنا رمضان -أو عند قيام الليل في أي وقت ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢] ما هو قيام الليل؟ قيام الليل: هو عبادة بجميع أنواعها، ومنها العلم، فطلب العلم وممارسة العلم في الليل تعتبر من قيام الليل مع قراءة القرآن والدعاء والذكر والصلاة وغير ذلك.

٤- التلقي عن كبار العلماء:

ومن هنا نضيف نصيحة أخرى لطالب العلم، وهو أن يقصد كبار العلماء، وخاصة العلماء الأتقياء، ليأخذ عنهم علمهم، ويفيد من سيرتهم وسلوكهم، والتزامهم في الأحكام الشرعية، وهذا يؤدي إلى نتيجة وهي أن يكثر من زيارته للعلماء والصالحين، وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، ويقول المثل: ويعرفه الناس جميعاً: إن (الصاحب ساحب) فكلما كان طالب العلم مع العلماء الأتقياء الصالحين والعباد الزهاد اكتسب من عملهم ومن سيرتهم ومن سلوكهم، ولذلك يقول علماء التربية: إن أسلوب القدوة أو حسن القدوة يعد من أهم وسائل العلم، والحصول على العلم، وكثيراً ما يتعلم الإنسان أشياء عملية ممن يراه وممن يصاحبه أكثر مما يتعلم بلسانه، ويسمع بأذنه، أو يرى ويقرأ بعينه.

٥- توقير العلماء:

فطالب العلم لا يستفيد من العالم إذا لم يكن يحبه ويحترمه، وأن العالم في الأصل يحب طلابه، ويحب أبناءه، وبالتالي يحرص على تعليمهم وتربيتهم، حتى قال علماء التربية: لا يوجد إنسان في الدنيا يحب غيره أن يكون أحسن منه، إلا اثنان الأب يحب ويتمنى ويسعى أن يكون ولده أفضل منه في الحياة، ثم في المستقبل، والمعلم حريص أن يكون تلميذه مثله وأفضل منه في المستقبل؛ لأنه يشعر أن ذلك امتداد له ولعلمه، وأن هذا العلم لا يضيع، ولذلك يكون

المعلم سعيداً بالطلاب النبجاء والطلاب المتميزين، ويسعد بهم ويشعر أنه أب روحي لهم، ولذلك عندما سئل بعض الناس أيهما أحب إليك: والدك أم معلمك؟ قال معلمي.. لماذا؟ قال: لأن أبي غذاني جسمياً ومادياً، أم معلمي، فقد غذاني نفسياً وروحياً وارتفع بي إلى المستقبل، والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: رسالة إلى أستاذ[1]

يقول الرسول ﷺ: «من لم يشكر الناس لا يشكر الله» ولذلك كان الاعتراف بالفضل لأهله، وشكرهم عليه من الأدب والأخلاق السامية.

ويقول المثل العربي الرفيع: «من علمني حرفاً كنت له عبداً» وهذا تدريب على المثل العليا، للإقرار بحق المعلم، وبيان الواجب تجاهه.

ويقول الشاعر العربي الحكيم حافظ إبراهيم رحمه الله تعالى:

قم للمعلم وفّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولاً

وذلك لما له من فضل وتأثير، وتوجيه وتربية، وإعداد للفرد والمجتمع، فالمعلم أو المدرس أو الأستاذ أب روحي يمنح الطلاب الغذاء المعنوي، وينمي العقل، ويثقف الفكر.

فالمعلم هو المثل الأعلى في حياة الناس، والمعلم أستاذ ومصلح ومرب، وهو ضياء ونور، ومرشد للخير والفضائل، وهذا ما أكده المعلم الأول للبشرية، محمد رسول الله ﷺ عندما قال: «إنما بعثت معلماً»، فإنه أنقذ الناس من الجاهلية إلى النور، ومن الأمية إلى ذروة العلوم والحضارة، وبيَّن الأحكام عن ربه، وتمثّل به الشرع الحنيف، وتجسدت فيه الأخلاق الإنسانية.

والمعلم مرآة يرى الناس فيه مواقفهم في الحياة، وقربهم من الصراط، وهو ميزان يقيّم أعمالهم، ويراقب أفعالهم، ليحاسب كل منهم نفسه.

وإن المعلمين والمدرسين والأساتذة لكل طالب كثر، وبعضهم يترك أثراً مميزاً على شخصية الطالب، حتى يصل بالتلميذ أن يتقمص شخصية أحدهم،

---

(١) نشرت في صحيفة البيان بتاريخ ١٤٢٢/٩/٢٣هـ الموافق ٢٠٠١/١٢/١٢م.

ويحاكيه في أعماله وتصرفاته وحركاته، ويتبعه كظله وخياله، ليكون له القدوة والأسوة.

وكثيراً ما يكون تأثير المعلم باعثاً لتحبيب الطالب بتخصص معين، أو منهج خاص في الحياة وفي الدراسة، ليقتفي أثره، ويتتبع خطاه، ويكون امتداداً لشخصيته وعلمه.

وإن أساتذتي كثر في المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية والدراسات العليا، اعترف بفضلهم، وأعتز بالتتلمذ على أيديهم، والاستفادة من فضلهم وعلمهم وتوجيهاتهم،

وكثير منهم له تأثير مباشر ومميز، ولكن هناك أحد أساتذتي جمع بين التأثير العلمي والشخصي والعاطفي والعائلي، ولازمته في الحياة الشخصية والعائلية منذ نعومة الأظفار، والطفولة حتى الشيخوخة، ولا أزال أنهل من معينه، وأقتبس من فكره وعلمه ومواقفه، ولذلك رأيت من الواجب أن أبدأ بكتابة هذه الرسالة له، تقديراً ووفاء، واعترافاً بالفضل، وبياناً للواقع، وحباً وإخلاصاً، وإجلالاً واحتراماً، ألا وهو شقيقي الأكبر الأستاذ العلامة الفقيه المفسر الأصولي الدكتور وهبة الزحيلي، وكثيراً ما يشتبه الناس فينا، ويظنون أننا شخص واحد، بل كثيراً ما تأتي الرسائل والمكاتبات تحمل الاسمين معاً في آن واحد، وقد يشتبه بعض الناس في التفريق بين الأصغر والأكبر، والطالب والأستاذ، فيكون جوابي باستمرار: إنه شقيقي الأكبر وأستاذي.

بدأ تأثيره وتوجيهه من البيت والأسرة، ثم امتد إلى مجالات الحياة الاجتماعية، والعلاقات العامة، ثم في الروابط العائلية والشخصية، فكان متميزاً، وفريداً، وطموحاً في الحياة فلا يرضى إلا بالقمم، وكان منظماً في

أعماله تنظيماً دقيقاً، ورائداً وموجهاً داخل الأسرة الصغيرة والكبيرة، ويتصرف باعتباره قدوة لغيره، وأسوة لمن حوله، ومن يحوط به، ويتمتع بظاهرة القيادة والريادة في كل لقاء.

وانقطع التأثير العلمي المباشر بيننا لإيفاده للدراسة بالقاهرة، ثم عاد أستاذاً إلى كلية الشريعة بجامعة دمشق عندما كنت في السنة الثالثة فيها، ودرسني أهم العلوم الشرعية وأدقها في الفقه والأصول في السنتين الثالثة والرابعة، ثم صار عميداً، ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه، وانقطع التأثير ثانية عند إيفادي للدراسة في الأزهر الشريف، ثم تجدد التأثير والإفادة عندما حصلت على الدكتوراه، وعدت مدرساً إلى كلية الشريعة، فكان رئيساً لقسم الفقه، ومتألقاً في التدريس والإشراف، والاجتماعات، والمشاركة في الندوات والمحاضرات.

إليك شقيقي وأستاذي التقدير والإجلال، والمحبة والاحترام، وإنني طوع أمرك، ورهن إشارتك في الأمور الخاصة والعامة، وفي المجالات العلمية والعملية.

إنني نقطة في صحائف عملك، وأثر من إنتاجك الوفير، وامتداد لعطائك، وناقل لعلمك، ومتحدث بفضلك، ومعتز بك، وفخور بشخصيتك.

ومهما قلت، أو زدت، فإني أقرر الحقيقة، ولست منطلقاً من المثل القائل «كل فتاة بأبيها معجبة» ولكني معبر عن الأحاسيس والوجدان، وقراءة الواقع، وأحد الذين يلهجون بذكرك وعلمك، فإن إنتاجك العلمي وفير، وطلابك الذين استفادوا منك أكثر، وأكثرهم في الحياة والمجتمع لا يحصى، مع شدة الانتباه والجذب إليك في ردهات العلم، وفي المؤتمرات الدولية، والندوات العلمية، وعلى شاشات التلفاز، ومن وراء المذياع، وعلى أعواد المنابر.

أستاذي وشقيقي: أهنئك من أعماق قلبي على عطائك، وقوة شخصيتك، وريادتك وإنتاجك، وما تحصل عليه من ثناء الناس، ليكون ذلك ذكراً خالداً في الدنيا، وذخراً طيباً مباركاً في الآخرة، ورسول الله ﷺ يرشدنا بقوله: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له بخير» فأسأل الله تعالى أن يطيل في عمرك، ويمدَّ في حياتك، ويبارك فيما أعطاك ووهبك، ويزيد في إنتاجك، ويمتعك بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وأن يحفظ عليك سمعك وبصرك وقوتك، وأن يجعله الوراث منك، وأن يحسن ختامك، كما ابتهل إلى الله تعالى أن يجيزك خير الجزاء عن كل ما ذكرت أو أشرت وأن يرفع مقامك في عليين، وأن يجمعنا مع الأحبة برفقة الأنبياء والشهداء والعلماء والصالحين والأولياء المقربين في جنات النعيم.

أدام الله فضلك وعزك، وحقق الخير على يديك، وجعلك هادياً مهديّاً، لتبقى علماً شامخاً -مع سائر العلماء العاملين المخلصين- لهذه الأمة، لحمل مشعل النور ورسالة الإسلام، فيبقى المصباح مضيئاً، والخير والعطاء مستمراً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

رابعاً: فضل العلم[1]

تحرص الدول والشعوب على بناء المدارس، وفتح الجامعات، لتكون منهلاً للعمل، وملاذاً للتلاميذ، وموئلاً للشباب، ويتوافد الجميع في مطلع كل عام دراسي برغبة وشوق إلى مقاعد الدراسة، لتصبح المدارس والجامعات قبلة للطلاب والعلماء، يتوفدون إليها، ويتجمعون فيها، ويؤدون الوظيفة المقدسة بهم، ويباركون مجالس العلم ويتباركون بها، ويحققون آمالهم وآمال الأمة في المستقبل والمعرفة والنور، وهذا أريج لبيان مكانة العلم والعلماء، وأثرهما في حياة الأمم، وفي نشاط المجتمع، وعند بناء المستقبل، مع الاستفادة من الخبرات السابقة، والجهود المبذولة.

فالعلم معرفة الحقائق، ونمو الذهن، وتفتح الدماغ، وتنشيط الفكر، وكشف الواقع، والاطلاع على نتاج المفكرين، والاستفادة من بحوث المؤلفين.

بالعلم يعرف الله، وبالعلم تتبين عظمة الخالق وقدرته، والعلم يزيل الجهل والأمية، ويرفع مكانة الأمة والأفراد، وشأن الدول، قال الشاعر العربي:

العلم يرفع بيوتاً لا عماد لها ... والجهل يخفض بيوت العز والكرم

بالعلم تتقدم الأمم، وتجني الثمار عملياً بالابتكارات والاختراعات، وتعمر الأرض، ويكشف ما في باطنها، وتستخرج خيراتها، وتستثمر مواردها، والعلم كالماء ينفع به من يعمل به، ويشقى من يحرم منه،كما تتبارى به الشعوب، وتتسابق فيه الحكومات، وتسارع إلى المكتشفات والاختراعات، وتتوقف نهضة الأمة على التقدم العلمي، والبحوث

(١) المنبر الجامعي، العدد ١٦ نوفمبر ٢٠٠٢م، السنة ٢.

والدراسات، العلم هدف جميع الدول والشعوب، ولذلك أنشأت لـــه وزارة التربية، ووزارة التعليم العالي، ووزارة الثقافة، وبنت له الأبنيـــة، وأشـــادت المخابر، وبذلت الحكومات نصيباً وافراً من ميزانياتها وواردااتهـــا، وســـهرت عليه، وحرصت على فعاليته، العلم مهنة الأطفال، وصنعة التلاميذ، ومقـــصد الطلاب، وسمر العلماء يبذلون الغالي والنفيس، ويقدمون له أغلى الأوقـــات، ويسهرون على جمعه واقتناصه وتحصيله، وينتشون بأخذه، ويغردون لنتائجه، ويفخرون بشهاداته، العلم هو الصعيد المشترك بين البشر في أرجاء المعمورة، وهو السلك الجامع بين الأجيال الماضية التي قدمت، والحاضرة التي استفادت وأعطت، والمستقبلة التي جنت وثابرت.

هذه الأمور تفسر لنا الآيات الكثيرة التي ختمت بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الـــروم: ٢٢] وقولـــه تعـــالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ وقوله تعالى في الثناء على أهل العلم والعلماء ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فـــاطر: ٢٨] وقولـــه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وشهد الله على مكان العلماء وقرن ذكرهم بذاته العليـــة ومع ملائكته، فقال تعـــالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، والحمد لله رب العالمين.

خامساً: مكانة العلم والعلماء

إن آثار العلم وثماره في الحياة أكبر دليل على مكانة العلم والعلماء، فالحضارات والعمران من بناء العلماء والاختراعات وحصيلة البحث العلمي، كما أن المكتشفات من ثمار المفكرين وجهودهم.

وأثنى رسول الله ﷺ على العلماء وطلاب العلم، فقال: «من سلك طريقاً يبتغي فيه أجراً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء» وقال عليه الصلاة والسلام: «العلماء ورثة الأنبياء» وقال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وقد ساهمت أمتنا العربية الإسلامية بقسط وافر في العلم استجابة لدعوة القرآن والسنة، وتطبيقاً لشرع الله ودينه وآياته، وحملت مشعل النور بالعلم، ووصلت إلى ذروة المجد العلمي، وتربعت على قمته عدة قرون، وكانت كعبة للشرق والغرب يجوبون في جنباتها، ويطوفون حولها، لينهلوا من معينها، ويقصدوا مدارسها وجامعاتها، ويستفيدوا من علمائها وتراثها، ولذلك كانت الحضارة الإسلامية والتراث الفقهي والعلمي يحتلان مساحة واسعة في تاريخ الحضارة الإنسانية، وكانت واسطة العِقد بين الحضارات القديمة والحضارة المعاصرة.

نعم، كانت أمتنا في القمة علمياً، واليوم صارت في الحضيض، وكانت في مقدمة الأمم، واليوم نزاحم الدول المتخلفة على المؤخرة، وكنا رواداً للعالم، فأصبحنا عالة عليه، وكنا نعطي بسخاء، واليوم نأخذ فتات موائدهم، ونتسول على أبواب الغرب والشرق، كانت أمم الأرض تنهل من معاهدنا

الفكرية والعلمية، واليوم نقف بحياء وخذلان هنا وهناك، كان علماؤنا مشعل النور للغرب والشرق، وكانت الحكومات تغدق الأموال على العلم والعلماء والمدارس والجامعات، واليوم تنفر المفكرين، وتشرد المبدعين، وتزهد بالمتفوقين، فكانت النتيجة أن يمموا وجوهم قبل المشرق والمغرب ، وجابوا مدن العالم وعواصم الدول الغربية ليستفيدوا منهم، بل كثيراً ما تطرد الحكومات العلماء وتقتلهم، والعار كل العار عندما رأيت هجرة العقول العربية الإسلامية المفكرة إلى الغرب، وعلمت قريباً أن الولايات المتحدة وحدها تستفيد من بضعة آلاف طبيب سوري، ما عدا الأطباء السوريين في ألمانيا وبريطانيا والنمسا وإيطاليا وغيرها، وما عدا المهندسيين وأصحاب الاختصاصات الأخرى، وما عدا الأطباء والمهندسين والمبدعين من سائر البلاد العربية والإسلامية، وعلمت أن ٢٠% من مهندسي الولايات المتحدة في الكومبيوتر والإلكترون حضروا من أفقر بلاد العالم وهي الهند التي تزهد بعلمائها، وتصدر مفكريها، فتقتنصهم الولايات المتحدة وغيرها.

وبعد لنرفع راية العلم، وشأن العلماء ونقبل على المفكرين والمبدعين لنعضَّ عليهم بالنواجد، ونعلي شأن الصروح العلمية، ونفتح لهم الأبواب ليفيدوا بلدهم وأمتهم ، وننفق بسخاء على البحث العلمي، ونستفيد من ثمراته ونتائجه، لنضع أيدينا على الاتجاه الصحيح، ونبدأ المسيرة من جديد، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧] والحمد لله رب العالمين.

سادساً: افتتاح المدارس والجامعات

تحرص الدول والشعوب على بناء المدارس، وفتح الجامعات، لتكون منهلاً للعلم، وملاذاً للتلاميذ، وموئلاً للشباب، ويتوافد الجميع في مطلع كل عام دراسي برغبة وشوق إلى مقاعد الدراسة، لتصبح المدارس والجامعات قبلة للطلاب والعلماء، يتوافدون إليها، ويتجمعون فيها، ويؤدون الوظيفة المقدسة بهم، ويباركون مجالس العلم ويتباركون بها، ويحققون آمالهم وآمال الأمة في المستقبل والمعرفة والنور.

وهذا أريج لبيان مكانة العلم والعلماء، وأثرهما في حياة الأمم، وفي نشاط المجتمع، وعند بناء المستقبل، مع الاستفادة من الخبرات السابقة، والجهود المبذولة.

فالعلم معرفة الحقائق، ونمو الذهن، وتفتح الدماغ، وتنشيط الفكر، وكشف الواقع، والاطلاع على نتاج المفكرين، والاستفادة من بحوث المؤلفين.

بالعلم يعرف الله، وبالعلم تتبين عظمة الخالق وقدرته، والعلم يزيل الجهل والأمية، ويرفع مكانة الأمة والأفراد، وشأن الدول، قال الشاعر العربي:

العلم يرفع بيوتا لا عماد لهـــا والجهل يخفض بيوت العز والكرم

بالعلم تتقدم الأمم، وتجني الثمار عمليا بالابتكارات والاختراعات، وتعمر الأرض، ويكشف ما في باطنها، وتستخرج خيراتها، وتستثمر مواردها، والعلم كالماء ينتفع به من يعمل به، ويشقى من يحرم منه، كما تتبارى به الشعوب، وتتسابق فيه الحكومات، وتسارع إلى المكتشفات والاختراعات، وتتوقف نهضة الأمة على التقدم العلمي، والبحوث والدراسات.

العلم هدف جميع الدول والشعوب، ولذلك أنشأت له وزارة التربية، ووزارة التعليم العالي، ووزارة الثقافة، وبنت له الأبنية، وأشادت المخابر، وبذلت الحكومات نصيباً وافراً من ميزانياتها وواردتها، وسهرت عليه، وحرصت على فعاليته.

العلم مهنة الأطفال، وصنعة التلاميذ، ومقصد الطلاب، وسمر العلماء يبذلون الغالي والنفيس، ويقدمون له أغلى الأوقات، ويسهرون على جمعه واقتناصه وتحصيله، وينتشون بأخذه، ويغردون لنتائجه، ويفخرون بشهاداته. العلم هو الصعيد المشترك بين البشر في أرجاء المعمورة، وهو السلك الجامع بين الأجيال الماضية التي قدمت، والحاضرة التي استفادت وأعطت، والمستقبلة التي جنت وثابرت.

هذه الأمور تفسر لنا الآيات الكثيرة التي ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النساء: ٨٢] وقوله تعالى في الثناء على أهل العلم والعلماء: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وشهد الله على مكانة العلماء وقرن ذكرهم بذاته العلية ومع ملائكته، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، والحمد لله رب العالمين.

سابعاً: فصل للعطاء وشهر للتزكية، وعام للاعتبار[1]

(مطلع العام الدراسي)

الحمد لله يصرِّف الأوقات، ويقلب الليل والنهار، والصلاة والسلام على الرسول الهادي المرشد لأمته للخير، والقائل: «اغتنم خمساً قبل خمس: صحتك قبل مرضك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك، وحياتك قبل موتك».

فالرسول عليه الصلاة والسلام اعتبر هذه الأمور الخمسة غنيمة لصاحبها، وأمر بالحرص عليها، والاستفادة منها، والتنافس فيها، والاحتياط لها ما أمكن قبل فوات الأوان والوقوع في الندم الذي لا يجدي ولا ينفع، ولات ساعة مندم.

وأغلب هذه الغنائم تتوفر بالطالب في صحته، وفراغه، وشبابه، وحياته، ثم غناه إن وجد، ولذلك نذّكر بها في مطلع العام الدراسي الجديد، ليكون هذا الفصل للعطاء والإبداع، وتدارك الوقت، وجني الثمار، وتحصيل المكاسب لتعود بالنفع أولاً على صاحبها، ثم يسري النفع للأسرة والأهل ثم إلى المجتمع والأمة، وفي خلاله يحل شهر رمضان ضيفاً، ثم يتلو كل ذلك الفصل الثاني.

ويتأكد هذا العطاء والاستثمار والعيش والكسب، في شهر رمضان المبارك الذي يظلمه كثير من مسلمي العصر، ليركنوا فيه إلى الخمول والكسل، والارتخاء والنوم، بحجة الصيام، بينما يعتبر في النظر الإسلامي، والتطبيق العملي للمسلمين المخلصين شهر البذل والجهد، وزيادة العطاء، وأنه

---

(١) من عبق الجامعة، العدد ١٩- رمضان ١٤٢٤هـ- نوفمبر ٢٠٠٣م.

إضافة لذلك فرصة للتقرب إلى الله تعالى، والتزكية الروحية، والصفاء النفسي، والعطاء الذهني، بل شهر العلم والتعلم والجهاد والعمل، ومما يؤكد ذلك طبياً أن الطعام -عادة- مدعاة للارتخاء، ويتطلب المزيد من النوم، ويحتاج إلى فترة راحة، فإذا قلَّ الطعام وفّر صاحبه ذلك ليعطي ويتقدم، كما أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك عند الترغيب بالصوم وبيان بعض مزاياه وفضائله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالصوم»، لذلك تسمو النفس إلى بارئها، وتعشق الروح منابعها، تضيف إلى أعمال الدنيا كسباً للآخرة، وزاداً للجنة، دون أن يكون ذلك على حساب الأعمال المطلوبة، والواجبات المقررة، والمسؤوليات المحددة، ويتأكد ذلك بالتطبيق العملي لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠-١١]، فالنهار للمعاش والكسب والجد والعمل لصالح الحياة الدنيا، ويبقى الليل لباساً للمؤمن بالصلة مع الله تعالى، مع الصيام بالنهار.

ويبدأ رمضان بالاستقبال والتهليل والحفاوة، ويعيشه الصائم بالتزكية والروحانية والطاقة والعبادة، ثم يُودعه بالحسرة ومرارة الفراق، ولا يشعر المرء إلا وقد انتهى الفصل الدراسي أيضاً بالامتحان والتصحيح، والنتائج، ليبدأ فصل آخر، ثم ينتهي الفصل الثاني، وينتهي العام، وتعود الأمور أدراجها ليخسر الإنسان سنة من عمره، فإن اغتنمها فهنيئاً له وهي في صحيفته وكتابه إلى يوم الدِّين، وإن فرط فيها كانت حسرة ولن تعود له، ثم يندم عليها.

فالبدار البدار إلى اغتنام الوقت والعمر والصحة والفراغ والشباب والطاقة والحياة، وهذه ذكرى، وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وإنما يتذكر من يخشى، وذكّر بالقرآن من يخاف وعيد، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، والحمد لله رب العالمين.

ثامناً: أبنائي الطلبة[1]

العنوان السابق يتردد باستمرار على ألسنة المدرسين والإداريين في المدارس والمعاهد والكليات والجامعات.

وهذا النداء يحمل المعاني السامية، وحسن الخطاب، وهو عبارة مختصرة، لها دلالات رفيعة، سواء كانت لجذب الانتباه، والتحبب، والتودد، واستدعاء الرعاية للطلبة، أو لدلالتها الحقيقية في البنوة الروحية.

إن المدرس أب روحي للطالب، يرعاه بحنان الأبوة، وشفقة القرابة، ويحس بالقرب منه، وصدق العلاقة معه، ونبل الهدف والغاية، لأن العلم رحم بين أهله، وقد قرر علماء التربية أنه لا يوجد إنسان يحب أن يكون غيره أحسن منه، وأفضل مكانة، إلا اثنين: الأب، والمعلم.

والأب من النسب والدم والرحم والد حقيقي، لأنه كان السبب المباشر في إيجاد الولد، وهو يرعاه، ويربيه، وينفق عليه، ويتطلع إلى مستقبله، ويسعى لمصلحته، ويسهر لأجله ويكد في الحياة ليؤمن له القوت والنفقة، ويبذل أقصى طاقته لتحقيق الرفاهية له وليداً، وطفلاً، وشاباً، وكهلاً، ويسعى في جمع المال لمستقبل أولاده، ليوفر لهم حياة أفضل مما هو فيه، ويجنبهم العثرات والفجوات التي مر بها، أو ألمت به، ومن هنا دعا الإسلام إلى بر الوالدين، وأوجبه، وجعل مرتبته بعد الإيمان بالله تعالى، فقال عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وطلب من الولد أن يحسن رعاية والده، وأن يدعو له حياً وميتاً، فقال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ

(١) المنبر الجامعي، العدد ٩، يونيو ٢٠٠١م.

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ [نوح: ٢٨].

والمعلم أو المدرس هو أب معنوي للطالب، يرعاه روحياً وفكرياً، ويغذيه تربوياً، وثقافياً، ويأخذ بيده إلى المعالي والخير، ويرشده إلى الأقوم، ويقوم على تلقينه الأدب الرفيع، والخلق القويم، ويحقنه بالعلم والمعرفة، ويقدم المعلومات النافعة له في الدنيا والآخرة، ويطمع أن يكون امتداداً له في الحياة، ناقلاً عنه العلم، وراوية لفكره، ولذلك يبتهج بنجاحه، ويطير فرحاً لتفوقه، ويشعر أنه ثمرة لتعليمه، وغرسة من إنتاجه، وأن جهد وجهاده بالتعليم لن يضيع سدى، أو يطير في أدراج الرياح، ويفتخر بأبنائه الطلاب في المستقبل عندما يراهم في المناصب العليا، وكأن لسان حاله يقول: الحمد لله الذي حقق بصاحب هذا المنصب طموحي.

والمعلم أو المدرس صاحب رسالة يتطلع إلى أدائها، وإن الطلاب هم المجال الحيوي الوحيد لذلك، فإن استطاع أن ينقل إليهم فكره وعلمه وأدبه أدرك أنه أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، فيرتاح ضميره، وينتشي فرحاً بتحقيق طموحاته، ويحس أن مركب العلم والحضارة والمدنية يسير بالطريق الصحيح والسوي، لذلك كان الطلبة قرة عين للآباء والمعلمين معاً.

وإن المدرس نفسه كان قبل ذلك طالباً، ويدرك أحاسيس الطلاب وآمالهم، وآلامهم، وتطلعاتهم، ومشاعرهم، وإن طالب اليوم هو مدرس، ومرب، وموظف ومدير، وأب لغيره في المستقبل، وهو رجل أعمال، وعضو فعال في قادمات الأيام.

وينظم العلاقة بين المدرس والطالب حديث شريف، يعتبر من جوامع

الكلم، ومن الحكم البليغة، والتشريع الحكيم لتنظيم أمور الناس عامة، وهو قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه».

فإن تم تطبيق هذا الحديث عملياً انتظمت حبات العقد، واتصلت حلقات الحياة، وتواصلت الأجيال، وكان المدرس حلقة الوصل بين الماضي والحاضر، بينما يشكل الطالب جسر البناء بين الحاضر والمستقبل، لتتكامل الجهود ويكون الطلبة خير خلف لخير سلف، ويحملون الصفات الوراثية للجيل السابق، مع الفكر والثقافة والمنجزات السابقة، ويضيفوا عليها الإبداع، والإنجاز، والاختراع، وتتحقق خلافة الإنسان في الأرض، مع التمثل بقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وبعد:

فإننا نتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن يحفظ أبناءنا الطلبة، وأن يوفقهم لما يحبه ويرضاه، وأن يسدد خطاهم، ويكتب لهم النجاح المطرد، وعلو الدرجات، وأن يحفظهم من كل سوء، ويبارك في دراستهم، وسهرهم الليالي، وجدهم واجتهادهم، وأن يرزقهم العمل لخيري الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

تاسعاً: العدالة في تصحيح الامتحان[1]

تنتهي الدراسة في الجامعة والمدارس والمعاهد والدورات بالامتحان ويمثل الامتحان المرحلة الأساسية والمهمة في التقويم والقياس، ثم يتم تصحيح أوراق الامتحان وتعتمد عملية التصحيح على ركنين أساسيين، وهما الورقة الامتحانية التي تحمل إجابة الطالب، والأستاذ المصحح الذي يتولى التقويم وإعطاء الدرجة التي تستحقه الإجابة.

ويتحدد منهج التصحيح حصراً على إقامة العدالة، وإعطاء كل ذي حق حقه بالقسط والحق والعدل الذي يجب تطبيقه في مختلف جوانب الحياة، ويتجلى بشكل بارز في الحكم والقضاء، وفي تصحيح الامتحان.

وقد قامت السموات والأرض على العدل، وهو أساس العمران، وبه قوام العالم، وهو أساس الملك، وقوام السلطة، ورقي المجتمع، وتقدم الأمة.

وإن الله تعالى أرسل الرسل والأنبياء، وأنزل الكتب والصحائف لتحقيق العدل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهو العدل.

وأمر الله تعالى عباده بالعدل بإطلاق، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وإن الأستاذ أثناء عملية التصحيح والتقويم هو بمثابة قاض، وحاكم، ومحكم، وهو مأمور بالعدل والإنصاف وإحقاق الحق، وهو مسؤول -قضاء

(١) الجامعية- العدد الثامن- السنة الأولى- فبراير ٢٠٠١م.

وديانة- أمام الله تعالى عن عمله، فإن أحسن فله الثواب والأجر عند الله، والذكر الحسن والسمعة الطيبة عند الناس والمسؤولين، وإن قصر أو ظلم، أو أساء، فله العقاب والجزاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وإن تصحيح أوراق امتحان يجب أن يقوم على العدل الذي تتحدد أسسه فيما يلي:

١- التقدير العادل:

يجب أن يكون تقدير الدرجة عادلاً بحسب الإجابة حصراً، ودون أي اعتبار آخر، التزاماً بالمبدأ القرآني الخالد والمطلق والعام، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فالدرجة حسب العمل، والمدرس يعطي التقدير العادل بمقدار ما أعطى الممتحن، كما قال المثل العربي: «وإنما نعطي الذي أعطينا»، فالإجابة الصحيحة توجب النجاح، وليس المدرس هو الذي يمنح الطالب النجاح، بل إن جهد الطالب الذي يتمثل في إجابته هو الذي يمنحه استحقاق الدرجة عن جدارة، والمدرس ملزم شرعاً وعقلاً ومسلكياً بأن يعطي الدرجة العادلة.

٢- بإعطاء الحق الكامل:

يجب على المصحح أن يعطي الطالب حقه كاملاً، وغير منقوص، ولا يقبل التشدد المؤدي إلى حرمان الطالب مما يستحقه، وهو ما حذر منه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وكل نقص لدرجة الطالب هو ظلم، وأي ظلم، يدخل تحت تحذير النبي ﷺ: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»، وإن المظلوم يلجأ إلى المراجعة أولاً، ثم يستعين بالدعاء لله تعالى، فيستجيب الله دعاءه، كما هو ثابت في الحديث الصحيح: «ثلاثة لا ترد دعوتهم.. والمظلوم»، فإن الله تعالى يقول: «وعزتي وجلالي لأنصرنه ولو بعد حين»، ويقول الثعالبي: «الظلم مسلبة للنعم، والبغي مجلبة للنقم، أقرب الأشياء صرعة المظلوم، وأنفذ السهام دعوه المظلوم، ومن طال عدوانه زال سلطانه، ومن ظلم عق أولياءه، ومن كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه، شر الناس من كَفِل الظلوم، وخذل المظلوم.

٣- المساواة في التصحيح:

يقول رسول الله ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط» ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «آس الناس.. حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك»، أي سو بينهم عند تساويهم في الحق والاستحقاق، حتى لا يطمح ذو الحظوة في الظلم، ولا ييأس البعيد من العدل.

ومن هنا يتوجب على المصحح أن يحقق المساواة بين الطلاب المتساويين في الإجابة، ولا يقبل العقل والشرع أن تتساوى الإجابة عند طالبين فأكثر، ثم تتفاوت الدرجة بينهم، لأي اعتبر آخر.

٤- الزيادة أخت النقص:

وكما لا يجوز، ولا يصح، ولا يقبل النقص من استحقاق الطالب، فلا تقبل الزيادة بدون حق، بل يجب إعطاء الطالب ما يستحقه من الدرجات

والتقدير، دون أن يعطى أكثر من ذلك، سيراً وراء العبارة الشائعة «إن المدرس لا يعطي شيئاً من جيبه»، وإن إعطاء درجة الامتياز لجميع الطلاب، أو أكثرهم، أو حتى لنصفهم، لا يمثل الحقيقة والواقع في شيء، فالمتفوقون في كل شعبة محصورون، والطالب الذي يستحق تقدير المقبول يجب أن يعطى له حصراً، ومن يستحق الجيد أخذه، ليدرك الطالب مستواه وتقديره، وتحقق الجامعة رسالتها، وهو من النصح السديد للطالب نفسه، فإن منح أكثر من ذلك فهو ظلم وحيف للطالب نفسه، وغش له، وتغرير بعمله، وطعن في العدالة، وإساءة إلى الجامعة والأمة، وهو من أشد الظلم على الطالب المجد المجتهد الذي درس، وسهر، وجدّ، واجتهد، وثابر وحصل العلم، ونال الامتياز عن جدارة ثم يكون بجانبه ومستواه في التقدير الطالب المقبول، والعقل يوجب إذا اختلف العطاء اختلف الجزاء.

نسأل الله تعالى أن يكتب التوفيق والسداد والعدالة للطالب، والأستاذ، والحمد لله رب العالمين.

عاشراً: النجاح والتفوق في الدراسة مرتبط بالجد والاجتهاد

الحمد لله الذي ربط الأهداف بالعمل واتخاذ الأسباب، والصلاة والسلام على رسول الله، المثل الأعلى في الجد والاجتهاد والقيام بالأعمال. وبعد:

فإنه يطل علينا شهر سبتمبر من كل عام لتفتح المدارس والمعاهد والجامعات أبوابها ويتجه التلاميذ والطلبة إلى قاعات الدرس والدراسة، وحلقات العلم والتعليم، ولهم تطلعات جسيمة، وآمال عريضة، وطموح وثّاب، ويرمقون بأعينهم إلى المعالي، ويضعون أمام أبصارهم الدرجات العليا، والتفوق في النتائج، والنجاح في الدراسة والمسعى، ويعيشون مع أحلامهم البراقة التي يتمنون تحقيقها، وهم في ريعان الصبا، والفتوة، والشبان والهمة، والبراءة والطهر، متمثلين قول الشاعر:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أصعب العيش لولا فسحة الأمل

ولكن هذه الأهداف والغايات يجب أن تقترن بالأسباب والوسائل السديدة، والتخطيط القويم، ورسم الخطط الرشيدة، وإلا بقيت من أحلام اليقظة، ثم تمضي الساعات والأيام والأسابيع والشهور، ويجد الطلبة أنفسهم وجهاً لوجه مع نهاية الدراسة، ويفاجؤون بقرع أجراس الامتحان، ويقع كثير منهم في حيص بيص، ويرتبك في التهيأ والاستعداد لإجراء الفحص، فلا يجد الوقت كافياً، ولا حيلة له تسعفه، وقد فات الأوان، يتمنى على الله وعلى الناس الأماني، ويندم على ما فات، ولات ساعة مندم.

لذلك أردنا أن نقدم النصيحة الخالصة سلفاً، وفي مطلع الفصل الدراسي، ليأخذ الطالب الأهبة، ويبدأ بالجد والاجتهاد، والكد والكدح؛ لأن

رسول الله ﷺ يقول: «الدِّينُ النصيحة» قلنا: لمن يا رسولَ الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» بل تتضاعف مسؤوليتنا بتقديم النصيحة لأبنائنا وبناتنا الطلبة، وهم أمانة في أعناقنا، ومن حقهم علينا أن نرشدهم لما فيها الخير، ونأخذ بأيديهم للطريق القويم، لتحقيق مصالحهم في الدنيا والآخرة، ومساعدتهم في الوصول إلى أمانيهم في إنجاز أعمالهم، وتلبية رغباتهم، وتأمين مستقبلهم.

والطريق الوحيد بموجَب الشرع والعقل، والتجربة والخبرة، وعن المربين والحكماء: ينحصر في الجد والاجتهاد، والسعي والعمل، مع التوكل على الله، واستمداد العون والتأييد والتوفيق منه، ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فالدرجة بحسب العمل، ويقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فجاء لفظ العمل ثلاثة مرات في الآية الكريمة، وإن الآيات الكريمة التي تحث على العمل والسعي كثيرة جداً، وأن الآية الكريمة التي ترتب النتائج في الدنيا والآخرة على العمل أكثر بكثير.

والوعاء الأساسي للعمل هو الوقت، ولذلك يجب الحرص على شغله بالدراسة والجد والاجتهاد والحذر من ضياعه والعبث به، فالوقت هو الحياة، والوقت هو رأسمال الإنسان لعمله وجده ونشاطه واجتهاده، وكل لحظة تمضي فلن تعوض مطلقاً، ولن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، ولن ترجع الأيام والأسابيع والشهور القهقرى لاستدراك ما فات، ولذلك أكد الشاعر على ذلك بقوله: «على قدر أهل العزمِ تأتي العزائم» وقال: «ومن طلب العلا

سهر الليالي».

وأرشد رسول الله ﷺ إلى ذلك بشكل عام للناس جميعاً، واعتبر الوقت غنيمة يجب اقتناصها والحرص عليها، واغتنامها قبل أن تضيع أو تفوت، فقال عليه الصلاة والسلام «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتَك قبلَ موتِك، وشبابَك قبلَ هرمِك، وصحتَك قبلَ مرضِك، وغناكَ قبلَ فقرِك، وفراغَك قبلَ شغلِك» وكل فقرة من هذه الجمل غنيمة ومكسب وجوهرة يجب الحفاظ عليها، وإلا فاتت صاحبها وتركته وراءها يلهث عليها كالسراب.

ثم لابد من التنبيه والتحذير من الأمور التالية:

١- الحذر من التسويف والمماطلة والتأجيل في إجراء الواجبات للغد وما بعده، والتعليق على مجرد الأمل على قادمات الأيام للدراسة والاستعداد، فكل يوم له واجباته، فلا يمكن ضمها إلى يوم آخر، ومن الحِكَم «لا تؤجل عمل اليوم إلى غد» وهذا التسويف من وساوس الشيطان والتسلي بملاهي النفس، وهو من علائم العجز والخور، ولذلك جاء في الحديث الشريف «والعاجز من أتبعَ نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني».

٢- الحذر ثم الحذر من الاعتماد على مجرد الحظ، والضرب خبط عشواء، والتوقعات الواهية التي لا تقترن بالدراسة والجد والاجتهاد، فإنها لن تنفع صاحبها إلا الندم والخسران.

٣- الحذر كل الحذر من وساوس بعض الإنسان والجن من الاعتماد على الغش في الامتحان، فهذا وهم خارع، وطريق وعر، وخيانة للأمة والمجتمع والعلم، وتدمير للمستقبل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من غشَّ فليسَ مِنّا»، فإن فعل ووقع في الفخ ناله الجزاء الشديد، والعقاب

الأليم، والخزي والعار بين زملائه والناس، وإن نجا -وقلما ينجو- فقد غشَّ نفسه قبل أن يغش غيره، ودمّر مستقبله، ليكون فارغاً من العلم والزاد في حياته العملية الطويلة.

نسأل الله تعالى أن يأخذ بيد طلبتنا، وأن يسدد خطاهم، وأن يوفق مسعاهم، ويرشدهم إلى خير السعي والعمل، وأن يجعلهم من الناجحين، لخدمة أنفسهم وأمتهم ووطنهم ودينهم، وأن يحفظهم من كل سوء ومكروه، ليكونوا شعلة الأمل، وبناة المستقبل. والحمد لله رب العالمين.

حادي عشر: التخرج ومفترق الطرق[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، هذه كلمة أبوية توجيهية لطلبتنا وأبنائنا الخريجين لهذا العام ٢٠٠٤/٢٠٠٥، وأقدمها من الخبرة في الحياة، ومن معطيات العقل والفكر والشرع والدين، يدخل الطالب إلى الجامعة بفخر واعتزاز، وهمة الشباب، ونشاطه، ويستقر في تخصص معين، فيطمئن به، ويتكيف معه، ويأنس لأساتذته وزملائه، وإلى مساقاته وعلومه، وينتشي طرباً بالنجاح سنة فسنة، ويمضي الزمان كالسيف، ليجد الطالب نفسه، وكلمح البصر، على أبواب التخرج، وقد عاش حياة رغيدة في صحته، وعافيته، وهمته، وشبابه، ونشاطاته، ودراساته ونجاحه، وتفوقه غالباً، فمن طلب العلا سهر الليالي، وتمتع بحيويته، وطموحاته، وآماله نحو المستقبل الزاهر، وأحلامه التي يتطلع إليها، وبصورة درامية يجد نفسه متخرجاً، وخارج الجامعة، ليواجه الحياة العملية، ويقف على مفترق الطرق، ويضيع أحياناً، ويتردد كثيراً، ويبحث هنا وهنا، وهل سيتابع الدراسات العليا؟ وهل سيعود إلى وطنه وأهله وولده؟ ويتجه شرقاً وغرباً للبحث عن عمل، وقد تطول المدة ليتسرب إليه شيء من الملل واليأس، ويراجع أوراقه ودفاتره، ويندب حظه، لأنه درس هذا الاختصاص، بينما وجد بعض أترابه العمل والطريق الممهد، ويضرب الأرض شرقاً وغرباً، وقد يلجأ إلى الضجر والانعزال في البيت، ويقارن بين واقعه الحاضر، وآماله وآلامه التي كان يبنيها، فيجد البون شاسعاً، إنها مرحلة واقعية تكاد أن تكون عامة، ولكن المؤمن يبقى على ثقة بالله تعالى، وأن الله لن

(١) المنبر الجامعي، العدد ٣٨ يونيو ٢٠٠٥ السنة الخامسة ص٢٦.

يضيع له عمله وكده واجتهاده، وأن الله تكفل برزقه، وأن هذه المرحلة مجـــرد اختبار لإيمانه وصبره، فإن مع العسر يسرين، إن مع العسر يسرين، ولن يغلـــب عسر يسرين، وأن الله يرزق الخلق جميعاً، ولكل وجهة هو موليها، وأن الوقت الذي يحسبه الحائر القلق بالدقائق والثواني لا يساوي في عمره إلا القليـــل، وأن الفرج قادم، وتفتح له الأبواب من جديد، ويلج أحدهم في متابعة الدراســـة، أو في أحد الأعمال، ويعود إليه الاستقرار في المجال الجديد، وينظر إلى أيـــام الـــتي قضاها فينساها، وتصبح من الماضي، ليكابد الحياة، ويسير في الطريق، ويتـــابع المسيرة نحو الدرجات السامية في الكسب والزواج والحصول على الـــشهادات العليا، أو تأسيس البيت والأسرة، ويطمئن في حياته من جديد، (وقل اعملـــوا فكل ميسر لما خلق له)، ولذلك يجب السعي المقترن بالإيمان والبحث مع الثقـــة بالله وبوعده، والله خير مسؤول، مع الدعاء لأبنائنا وبناتنا بـــالتوفيق والـــسداد والحفظ والرعاية، والله خير مسؤول، والحمد لله رب العالمين.

ثاني عشر: التخرج والطموح للعلياء

الحمد لله على نعمه التي لا تحصى، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على رسول الله معلم الناس الخير، والداعي للهدي القويم لتحقيق مصالح الإنسان، وتأمين السعادة له في الدنيا، لتكون مزرعة للفوز بالآخرة.

وإني أهني أبنائي المتخرجين والمتخرجات، وأشاركهم الفرحة العارمة لحصولهم على الغاية المقصودة، والشهادة التي عملوا وسهروا واجتهدوا للوصول إليها من جامعة الشارقة، لتكون لهم وساماً وشعاراً ورمزاً لمواصلة الجد والاجتهاد والعمل، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥].

والحصول على هذه الإجازة الجامعية (البكالوريوس) يجب أن تدفعهم للأمام، والطموح إلى العلياء، والسعي إلى الأمام، ومواصلة الطريق، ومتابعة المسيرة نحو الدرجات السامية، والدراسات العليا، وخاصة بعد أن ذاقوا حلاوة العلم والإيمان، وأحسوا بسعادة البحث والدراسة، وحصلوا على نشوة الظفر والنجاح، وأدركوا لذة المعرفة والتحصيل العلمي، فإلى الأعلى، وإلى الأعلى، وإلى مراقي الفلاح، وإلى متابعة الدراسة في برنامج الماجستير الذي فتحت برامجه في رحاب هذه الجامعة العتيدة، والله سبحانه يقول: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

مع الجد والإخلاص والتضحية والفداء للأمة والوطن والدين، وحسن المعاملة مع الزملاء والأهل والأقارب وسائر أفراد المجتمع، وخاصة عند تولي الوظيفة والمهام والمسؤوليات، والرسول ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم

مسؤول عن رعيته» وتتعاظم المسؤولية مع ازدياد المعرفة، وعلو الجاه والمنصب والوظيفة، وهي مسؤولية جسيمة في الدنيا أولاً، ثم في الآخرة أمام محكمة رب العالمين، وتلقاء جنة الخلد التي عرضها السموات والأرض، أو النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للظالمين والمعتدين والمقصرين، والحمد لله رب العالمين.

ثالث عشر: الشهادة الدراسية أمانة ورسالة[1]

إن طلب العلم عبادة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، ويشعر كل مثقف أن مرحلة الدراسة الجامعية تمثل أجمل أيام حياته، فيعيش ذكراها الحلوة، وقد كان أكبر همه، وغاية قصده، الحصول على الشهادة.

ويعيش الطالب في الجامعة مع أحلامه، وتطلعاته النظرية، وطموحاته النرجسية، ويحاول أن يرسم مستقبله بيده، وكأنه في برج عاجي، دون أن يتحمل مسؤولية ما.

لكن الشهادة التي يحصل عليها هي مجرد مفتاح للعلم، وليست غاية له ولا نهاية، لأن العاقل يطلب العلم من المهد إلى اللحد، ويعيش مع المحبرة إلى المقبرة، ويصحب الكتاب طوال العمر، فإنه خير جليس، قائلاً: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وموقناً بقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وعندما يتخرج الطالب ينتقل من الأحلام إلى الواقع، ويواجه الحياة بحلوها ومرها، ويزول عنه الخيال، وينكشف السراب، ويواجه شؤون الحياة، وممارسة العمل أو استلام الوظيفة.

وهنا يتميز العاملون من المتعلمين، ويشعرون بالأمانة التي حملوها، والرسالة التي تشرفوا بعبئها لخدمة الأمة والمجتمع، والقيام بالدعوة إلى الخير والبر والحق، ومثلهم إمام الدعاة محمد رسول الله ﷺ، ليسهروا على راحة الناس، ومد العون وأداء الخدمة لهم، ومتأسين بأخلاق المصطفى عليه الصلاة

---

(١) المنبر الجامعي، العدد ٢٢ يونيو، السنة ٣.

والسلام والعلماء العاملين في الرحمة واللطف واللين وطيب الكلام وحسن المعاملة، والحرص على مساعدة الناس، والأخذ بيدهم لما يحبه الله ويرضاه، وتحقيق مصالحهم وسعادتهم، فالدين المعاملة، وهنا تظهر أهمية الأخلاق وحسن الآداب التي تتقدم على العلم، ليكون الداعية قدوة لغيره، فقيمة الإنسان بما يحسنه، وإن شرف العلم التقوى، وثمرته العمل به، مع الإخلاص، ومراقبة الله تعالى، والطمع بما عنده، والتوكل عليه، وسؤاله التوفيق، ليحظى المرء بخيري الدنيا والآخرة، والله من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.

رابع عشر: الجد واللعب في طلب العلم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين.

يقول الشاعر:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

يقرر الشاعر أن السيف هو الحد الفاصل في العلاقات الدولية، ولكن السيف لا يصلح إلا في القتال والحرب والجهاد، فما هو الحد الفاصل للجد واللعب في التعليم خاصة والحياة عامة؟

لقد كنا طلبة لمدة ربع قرن، ثم مارسنا التدريس لأكثر من ربع قرن، ونرى الطلبة في الصف متقاربين في السن، والذكاء، والمستوى العقلي، ومعظم الظروف الأخرى، ومع ذلك نجد التفاوت كبيراً في نهاية كل فصل أو نهاية كل سنة، من الصفر إلى المائة، ومن الضعف والرسوب إلى الامتياز والتفوق، مع أن المدرس للجميع واحد، والكتاب واحد، والشرح موجه للجميع بالتساوي والامتحان مشترك بأسئلة وسلم التصحيح فيه، ومن مصحح واحد؟ فما هو السبب والسر والعلة في ذلك التفاوت الكبير الذي تترتب عليه نتائج مهمة وجسيمة وحساسة في متابعة الدراسة والتأهيل الوظيفي، والكفاءة العلمية، والمكانة الاجتماعية؟

وهذه الظاهرة عامة في جميع المدارس والمعاهد والجامعات، وفي مختلف البلدان والأقطار والدول، وفي سائر الأزمان في الماضي والحاضر والمستقبل، وفي جميع المستويات والاختصاصات والفروع، بل قد تعم سائر المهن والحرف والأعمال والوظائف، دون النظر إلى الدين والعقيدة والانتماء.

إن هذا العموم المطلق لا بد أن يرجع إلى سنة كونية قررها الإسلام، ونص عليها القرآن لتكون مبدأ خالداً للبشرية، وليست للمسلمين فحسب، وأن مجرد التدين والايمان وممارسة العبادات، وحسن الأخلاق لا دخل لها في ذلك في المنظار الشرعي، والتقدير الإلهي العادل الحكيم.

إن الحد الفاصل يرجع إلى مبدأ ورد في القرآن مئات المرات، وهو العمل، أو بذل الجهد، أو الممارسة والاشتغال بالمقصود، ولذلك تكررت الآيات الكريمة التي تأمر بالعمل، سواء للدنيا أو للآخرة، «اعملوا» «يعمل» «من عمل» وأن الجزاء من جنس العمل وبمقداره، فقال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢، ٩٥].

وقرر علماء النفس والتربية أن أثر العمل يحتل المرتبة العليا في التقدير، ويأتي قبل الذكاء، وأن العمل مع الذكاء المتوسط، يحقق تفوقا على الذكاء العالي أو التفوق في الذكاء بدون عمل، أو بعمل متواضع وقليل.

وهنا تنكشف الأستار والأسرار بالتفوق مقابل الجهد والعمل والسعي، وهذا ما نلمسه عملياً وأمام العيان بين الطلبة، وهذا السبب الوحيد الذي يفسر به التفوق، ويكشف حال الطالب في الجد أو اللعب، والاجتهاد والكسل، والاكتساب والتواكل، والنجاح أو الرسوب، والتقدير والنتيجة.

ولذلك كان من العدالة الإلهية، والسنن الكونية أن يكتب الله التوفيق والنجاح والتفوق لمن يعمل ويجد ويجتهد قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وكان التناسب طردياً وحتمياً بين العمل والجد والاجتهاد وبين النتيجة والتفوق والنجاح، وهو ما قرره القرآن الكريم بشعار واضح، ونص حكيم، ومبدأ خالد، مما نحتاج إلى إعلانه في كل فصل، وعلى باب كل غرفة، وعلى كل لوحة، وفي كل مدرسة وجامعة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٣، الأحقاف: ١٩].

ولذلك كان العمل والكسب والمواظبة عليه هو الحد الفاصل بين الجد واللعب، وليس السيف والحسام، فهذا له موقع آخر مما يتوقف أيضاً على العمل به، دون الوقوف عند المباهاة بمظهره وزخرفته وترصيعه بالذهب والجواهر بدون ممارسة وتطبيق وعمل.

فالعمل العمل، والجد الجد، والسعي السعي، ففيه النجاح والتفوق في الدنيا، وفيه الفوز برضوان الله في الآخرة، وهو المطلوب من الطالب الذي تفرغ للعلم، وينفق عليه وليه من أجل ذلك، وإلا كان مقصراً أو خائناً ومضيعاً للوقت والمال والمستقبل، والحمد لله رب العالمين.

خامس عشر: نصائح لطالب العلم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، الحمد لله الذي جعلنا مسلمين، ومن أتباع سيدنا محمد ﷺ الذي جاءنا بالدين القويم الذي تأتي الأيام لتؤكد وتثبت وتبرهن على عظمة هذا الدين أنه من عند الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فإننا نتحدث عن جانب قد يكون مطروحاً ومعروفاً بين الناس، ولكن ننبه عليه فإن الدّين النصيحة كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام، وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، هذا الموضوع إنما هو النصائح التي أقدمها لطالب العلم، وديننا دين العلم، ولا يوجد تشريع في العالم، ولا قانون ولا ديانة سماوية أو وضعية أو أرضية، كرمت العلماء ودعت إلى العلم كما دعا إليه الإسلام، وجعله مرتبطاً بالعقيدة، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فمن هنا يأتي دور العلم ومكانته في الأمم، وإذا نظرنا إلى الواقع والحياة، لنرى أن العالم ما تقدم اليوم، ووصل إلى ما وصل إليه، إلا عن طريق العلم، ومن هنا نتألم أننا متأخرون علمياً في عصرنا الحاضر، بل إننا مسئولون أمام الله سبحانه وتعالى على هذا التأخر العلمي في جميع العلوم والفنون، ومن هنا نقدم بعض النصائح لطالب العلم، لعله يسترشد بها، ويحرص عليها، ليحصل على النتائج الطيبة، ويفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، ويكون عمله جهاداً في سبيل الله، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم.

فأول نصيحة لطالب العلم هو أن **يخلص العمل لله**، ويخلص طلب العلم لله، بأن يكون طلبه للعلم مرضاة لله واستجابة لدعاء ونداء الله سبحانه وتعالى، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له، ومن هنا كلما كان الإخلاص في العلم لله كلما كان ذلك أقرب إلى التقوى، ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فالتقوى هي الوسيلة إلى العلم وزيادة العلم، ولأن العلم واسع ولا حصر له، ولذلك فإن فوق كل ذي علم عليم، كما يقول ربنا سبحانه وتعالى في الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فمن هنا تأتي النصيحة الثانية وهي: **المواظبة على طلب العلم** والاستمرار في طلب العلم وعدم التوقف عند نقطة محددة أو التكاسل في طلب العلم وهذا نوجهه أيضاً لطلاب المدارس سواء كانوا في الروضات أو المدارس الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية، أو الجامعة، بأن يبذلوا الجهد الكافي، ولا يضيعوا شيئاً من أوقاتهم، فكما يقول المثل: (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك) وإن العلم بحر لا ساحل له، ولذلك قال الشاعر:

ما حوى العلم جميعاً أحد لا ولو حصله ألف سنة

ومن هنا قال علماؤنا أيضاً فضيلة أخرى أو حكمة أخرى: (العلم إذا أعطيته كلك أعطاك جزءه) لأن العلم واسع فمهما تبذل له يقبل وينتج، ومن هنا ننصح بالانكباب على طلب العلم، والاستفادة من الوقت، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «اغتنم خمساً قبل خمس» ومنها «فراغك قبل شغلك» بأن يستفيد الإنسان من وقت الفراغ لطلب العلم لما يفيد في الدنيا والآخرة، ولذلك كان سلفنا الصالح يحرصون على طلب العلم من الصغر إلى

الكبر، ومن المهد إلى اللحد، وأنهم يطلبون ويسألون ويستفتون، حتى قالوا: «**السؤال مفتاح العلم**» و«اثنان لا يتعلمان مستحٍ ومتكبر» فهذه دعوة للسؤال، وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ واسألوا: فعل أمر، والأمر كما يقول علماء الأصول: الأمر للوجوب، فسؤال العلم واجب ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ومن هنا يجب على طالب العلم أن يبحث عن كل الوسائل التي يستفيد منها من أجل الزيادة في العلم، وهذا العلم كما ذكرنا بحر لا ساحل له، وكلما جمع الإنسان علماً أكثر استفاد هو أولاً، واستطاع أن يفيد غيره ثانياً، ويرتاح في حياته ثالثاً، أما إذا قصر وضيع جزءاً من أوقاته فإنه سيندم في المستقبل، ويحتاج إلى جهود أخرى كثيرة من أجل أن يحصل ما فاته سابقاً، ومن هنا النصيحة الأخرى وهي **الجمع بين العلم والعمل**، لأن العلم وحده لا يكفي، وقد يكون العلم وبالاً على صاحبه، وحجة عليه، ولذلك فإن الثمرة الأساسية للعلم، والهدف الأساسي للعلم، ليس من أجل المباهاة ولا من أجل المعرفة بحد ذاتها، ولكن من أجل التعليم من جهة أولاً، وتطبيق هذا العلم ثانياً، ولذلك فإن القرآن الكريم جمع في كثير من الآيات بين الإيمان والعمل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فطالب العلم إن بحث ودرس وجمع العلم فيجب أن يطبق هذه الأحكام والأمور التي تعلمها على نفسه، وخاصة الإكثار من العبادة والطاعة، وذكر الله سبحانه وتعالى، والدعاء أن يفتح الله عليه، وأن يعطيه علماً نافعاً في ذلك، ثم يمارس أحكام العبادات ليكون على صلة بربه، ويجمع بين خيري الدنيا والآخرة، ويكون له ثواب في العلم الذي هو عبادة في حد ذاته، ويعتبر العمل الذي يؤديه عبادة، ومن هنا عندما نسأل كثيراً، حتى في ليلة القدر،

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا إياها في شهر رمضان، وأن يبلغنا رمضان – أو عند قيام الليل الآن في أي مناسبة: ليلة الجمعة، ليل العيدين، في أي وقت ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢] ما هو قيام الليل؟ قيام الليل: هو عبادة بجميع أنواعها، ومنها العلم، فطلب العلم وممارسة العلم في الليل تعتبر من قيام الليل مع قراءة القرآن والدعاء والذكر والصلاة وغير ذلك، ومن هنا نضيف نصيحة أخرى لطالب العلم، وهو أن **يقصد كبار العلماء**، وخاصة العلماء الأتقياء، يأخذ عن علمهم، ويستفيد من سيرتهم وسلوكهم، والتزامهم في أحكام الشرع، وهذا يؤدي إلى نتيجة وهي أن يكثر من زيارته العلماء الصالحين، وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، ويقول المثل، ويعرفه الناس جميعاً: إن (الصاحب ساحب) كلما كان طالب العلم مع العلماء الأتقياء الصالحين والعبّاد الزهاد كلما اكتسب من علمهم ومن سيرتهم ومن سلوكهم، ولذلك يقول علماء التربية: إن القدوة أو حسن القدوة يعتبر من أهم وسائل العلم، والحصول على العلم، وكثيراً ما يتعلم الإنسان أشياء عملية ممن يراه وممن يصاحبه أكثر مما يتعلم بلسانه، ويسمع بأذنه، أو يرى ويقرأ بعينه، وما يضاف إلى ذلك، وعندها يكون لهاتين النصيحتين السابقتين باختيار العلماء الفضلاء ومصاحبة العلماء الصالحين والأخيار الصالحين، واجب عليه آخر، وهو **احترام العلماء**، فطالب العلم لا يستفيد من العالم إذا لم يكن يحبه ويحترمه، وأن العالم في الأصل يحب طلابه، ويحب أبناءه، وبالتالي يحرص على تعليمهم وتربيتهم، حتى قال علماء التربية: لا يوجد إنسان في

الدنيا يحب غيره أن يكون أحسن منه إلا اثنان الأب يحب ويتمنى ويسعى أن يكون ولده أفضل منه في الحياة، ثم في المستقبل، والمعلم حريص أن يكون طالبه مثله وأفضل منه في المستقبل، لأنه يشعر أن ذلك امتداد له ولعلمه، وأن هذا العلم لا يضيع، ولذلك يكون المعلم سعيداً بالطلاب النجباء والطلاب المتميزين، ويسعد بهم ويشعر أنه أب روحي لهم، ولذلك عندما سئل بعض الناس أنه أيهما أحب إليك: والدك أو معلمك؟ قال معلمي.. لماذا؟ قال: لأن أبي غذائي جسمياً ومادياً، أما معلمي فقد غذاني نفسياً وروحياً وارتفع بي إلى المستقبل، وأضيف نقطة، قد تشغل طالب العلم كثيراً، ويفكر فيها، وهي موضوع المستقبل وطلب الرزق وجمع المال.

أيها الإخوة والأخوات أرجو أن تطمئنوا إلى ذلك، وأن الرزق مقسوم للمسلم قبل أن يولد وهو جنين في بطن أمه، وبالتالي فعليه أن يكون مخلصاً للعلم، وأن المال والرزق سيأتي إليه قطعاً ١٠٠%، وأن الله سيرزقه سواء كان مفتياً أو عالماً أو قاضياً أو فقيهاً أو أستاذاً أو صانعاً أو مهندساً أو طبيباً أو صيدلياً أو غير ذلك، فرزقه مقسوم له قبل الولادة، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» اطلبوا الرزق، ولكن أجملوا الطلب فيه، لأن الرزق مقسوم، وما علينا إلا العمل والنتيجة إلى الله سبحانه وتعالى.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يرزقنا الطلاب، والأولاد البررة، وأن ينفعنا بما علمنا، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه، والحمد لله رب العالمين.

سادس عشر: آداب الطالب والمدرس[1]

إن الطالب والمدرس هما الركنان الأساسيان في العملية التعليمية، وإذا كان المدرس يحتل مركز الصدارة، ومحور الدائرة وحجر الزاوية، فإن الطالب هو الهدف والغاية، وهو المنطلق والرصيد والذخيرة، وهو المقصود في الحاضر، والأمل في المستقبل، ومن أجله فتحت الجامعة والمعاهد، وفي سبيله أنفقت الملايين، وجهزت المخابر، وشيدت الإدارة، وتعين المدرسون، وبذلت الإمكانيات الهائلة والقدرات المتنوعة، وجندت المواهب المختلفة.

ولا تحقق العملية التعليمية أهدافها وآثارها إلا إذا توفر التعاون بين الطالب والمدرس، وتوثق الاحترام المتبادل، وحصل عند الطالب الثقة بالمدرس، والمحبة له، ليكون ذلك وسيلة إلى محبة المادة العلمية والترغيب فيها، وقبولها، والاستزادة منها، والتفوق فيها والتحصيل من معينها، ولأن التعليم مسؤولية دينية واجتماعية وأخلاقية، وتسعى إلى الكمال الإنساني والرقي الحضاري، والتقدم والمدنية، وحمل مشعل النور للأمة جميعاً.

لذلك كتب سلفنا الصالح في تاريخ الحضارة والتربية الإسلامية كتباً عدة عن «آداب العالم والمتعلم» أو «آداب المفتي والمستفتي» أو «رسالة المعلم»؛ لأن المعلم هو المثل الأعلى للطلبة، وهو النموذج الفذ أمام أبنائه، لأنه يتمثل أدب العلم، وأخلاق المتعلمين، وتقوم علاقته مع المتعلمين على مقتضى العلاقة الإنسانية التربوية، وهي في ذات الوقت علاقة أبوية حانية، يكون فيها المعلم في موقف المربي والموجه، ويكون الطالب فيها في موقف المتلقي

(١) المنبر الجامعي، جامعة الشارقة، العدد ١٣، مايو ٢٠٠٢م.

والمتعلم، والمستجيب والمتأدب والمستفيد، وينظر إلى المعلم نظرة التأسي والاقتداء، لينهل من شخصيته وأخلاقه وسلوكه ومواقفه بمقدار ما ينهل من عمله ومعرفته.

ولابدَّ أن يكون المدرس أوسع صدراً، وأرحب نفساً ليستوعب آمال الطالب، وطموحاته، ويتلقى ما يصدر عنه من تصرفات متنوعة، لأنها تنبع غالباً عن حسن النية، وطيب النفس، وبراءة الموقف، ومحدودية التفكير، وطلب الاستزادة، وحسب الاسترشاد، والرغبة في الإقناع والانتفاع، وحتى لو صدر شيء من ذلك بسوء نية، فالمدرس هو الطبيب، والحكيم، والمحكَّم، والمداوي، والمعالج، وهو بمثابة الأب أو الأخ الكبير الذي يستوعب ما يصدر عن غيره، ويقومه، ويسدده، لأن المعلم غالباً أكبر سناً، وأكثر علماً، وأجل قدراً، وهو فوق ذلك أب روحي يعطي الطلبة الكثير الكثير بدون مقابل منهم، وقد يفوق معنوياً ما يعطيه الأب الحقيقي، ويتحمل أعباءهم، ثم يوجههم ويرشدهم ويأخذ بيدهم ومثله الأعلى محمد رسول الله ﷺ، وهو المعلم الأول الذي قال: «وإنما بعثت معلماً»، وفي حديث آخر: «ولكن الله بعثني معلماً ميسراً»، وقال عنه أحد أصحابه: «والله ما عرفت معلماً مثله» لذلك ربى أمة كاملة، وأنجب خير جيل عرفه التاريخ.

وعلى الطالب أن يبدي الاحترام لأستاذه، ويكنَّ له التقدير، ويمنحه الثقة، ويلازمه ما أمكن في الدروس والمحاضرات، ويسعى إليه للإيضاح والمزيد من المعلومات، فإن السؤال مفتاح العلم، ولما سئل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن السر في غزارة علمه أجاب: «رزقني الله قلباً لحوحاً، ولساناً سؤولاً».

وعلى الطالب أن يصغي إلى الدرس والموعظة، ولا يتشاغل أثناء المحاضرة، وأن يؤدي واجباته، ويواظب على تلقي العلم وحضور المحاضرات، ويبذل أقصى جهده للاستماع والدراسة والتحضير، مع الاستعداد المبكر والدائم والمستمر لأعمال السعي والامتحان، واغتنام الوقت ومرحلة الشباب التي هي مرحلة التحصيل الحقيقي، والتكوين العلمي، والنشاط والحيوية، وخاصة عند التفرغ لطلب العلم، وتحميل الأهل لنفقات الدراسة وحاجات الطلبة.

وإذا كان على الطالب واجبات كثيرة في دراسته بالجامعة من حيث الحضور والمواظبة والأعباء الدراسية، والمذاكرة، والمطالعة، وسهر الليالي «فمن طلب العلا سهر الليالي» والاستعداد للامتحان، فإن على المدرس واجبات أكثر في المقابل، كالتحضير الكامل للدروس، والحضور في الوقت المحدد، والتقيد بالتعليمات والالتزامات، والشرح والتوضيح، واستعمال أفضل الوسائل لإيصال المعلومات للطالب، والاعتدال في التكاليف والواجبات، والعدالة في التصحيح، وتنويع الأسئلة، وتوضيح الأفكار، وإرشاد الطالب إلى المراجع والمصادر، وطرق البحث، وأساليب الدراسة، ليجني الطالب الثمار، ويلتزم المسار المستقيم.

فإن تمَّ ذلك حققت الجامعة أهدافها، وأدت رسالتها، وأصبحت وسيلة للتواصل الحضاري، وتبادل المحبة والاحترام والتقدير، والافتخار بين الطلاب والمدرسين.

سابع عشر: التسوية بين الأولاد

الأولاد نعمة جلى، يمنحها الخالق جل وعلا للأبوين، ثم يكلفهما بتربيتهم وتأديبهم، والإنفاق عليهم، والسهر على مصالحهم، ورعاية شؤونهم، ولهما بسبب ذلك أجر عظيم، وثواب جزيل، لقوله ﷺ: «لئن يُؤدِّب أحدُكم ولده خيرٌ من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع، وفي رواية بصاع»[(١)]، وبين رسول الله ﷺ فضل تربية البنات خاصة، فقال: «ما من مسلم له ابنتان، فيُحسن إليهم ما صحبتاه، أو ما صحبهما، إلا أدخلتاه الجنة»[(٢)].

وإن تربية الأولاد مسؤولية عظيمة، ومهمة جسيمة، والأبوان أول مسؤول عن التربية، لقوله ﷺ: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته...، والرجل راع في بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها»[(٣)]، لذلك روى الحسن بن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيّع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[(٤)]، وأوصى الله تعالى الآباء والأمهات بالأولاد، مع توفر الدوافع الذاتية والغرائز الفطرية في رعاية الأولاد ومحبتهم، فقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١].

ومن مبادئ هذه التوصية، ومن خلال المسؤولية، فقد أوجب الله تعالى التسوية بين الأولاد، واعتبرها حكماً مقرراً في الشريعة الغراء، ومبدأ ثابتاً في

---

(١) رواه الترمذي عن جابر بن سَمُرة مرفوعاً، والصاع حوالي أربعة كيلو غرامات.
(٢) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً.
(٣) هذا جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٤) رواه ابن حبان في صحيحه.

منهج التربية الإسلامية، وقاعدة عامة، تؤديها النصوص الشرعية، ويدعو إليها العقل والمنطق.

وكان هذا الحكم الشرعي دواء ناجعاً لمرض وبيل كان متفشياً في جاهلية العرب قديماً، ويطلّ بأعراضه ومآسيه اليوم في بيوت المسلمين، ويقترن غالباً مع ضعف الإيمان، والجهل بأحكام الدين، وسوء التربية والتوجيه، وعدم الالتزام بشرع الله كما يلوِّح بأشباحه السوداء من جاهلية الغرب، وفي بعض الأنظمة الأجنبية، والأعراف المترددة.

لذلك أردت أن اذكِّر بالتسوية بين الأولاد، ليكون رائداً للمسلم في تربية أولاده، وعلاجاً للمشاكل التي تقع في الحياة والمجتمع، وبياناً لمنهج القرآن والسنة في التربية.

لقد أوجب الله المساواة بين الأولاد في جميع جوانب الحياة، وفي مختلف أنماط المعيشة والتعامل والسلوك، ونذكر أمثلة على ذلك:

١- **الرعاية والعطف**: وغير ذلك من الأمور المعنوية التي تظهر بسيطة وسهلة، ولكنها عميقة الجذور، كثيرة الآثار، فيجب على الوالدين أن ينتبها إلى تحقيق المساواة الكاملة بين الأولاد في الحنان والعطف والرعاية والتوجيه، والمحبة والعناية، والنظرات والابتسامة، والإقبال عليهم واستقبالهم، حتى في القُبَل، لما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تعالى يحب أن تَعْدلوا بين أولادكم حتى في القُبَل»[1]. ولما رواه أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان جالساً مع النبي ﷺ، فجاء بني له، فقبّله وأجلسه في حِجره، ثم جاءت بنيّة، فأخذها فأجلسها

(١) رواه ابن النجار عن النعمان بن بشير مرفوعاً.

إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: «فما عدلت بينهما»[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يُهِنْها، ولم يُؤْثر ولده، يعني الذكور عليها، أدخله الله الجنة»[2].

ولكن يكثر بين الناس تمييز أحد الأولاد على الآخر بالدلال، وكثيراً ما يكون هذا تمييز أمام بقية الأولاد، فيكون للابن الأكبر مثلاً، أو للابن الأصغر أحياناً، أو للصبي على البنت أو للبنت الجميلة على سائر أخواتها، أو للبنت الموهوبة بالذكاء أو الخفة، وغير ذلك من التصرفات التي لا تجوز شرعاً، ويحرم القيام بها، وتؤدي إلى أسوأ النتائج الأخلاقية والتربوية، وتترك جروحاً بالغة في النفس، لأن هذا التمييز يفضي إلى غرس الحقد والضغينة والبغضاء بين الأولاد، ويؤجج في قلوبهم نار الغيرة والحسد، ويزرع في صدورهم عوامل الانتقام، وتتحرك دماؤهم للثورة والتمرد.

وكان الأولى بالآباء والأمهات أن يغرسوا بين أولادهم المحبة والتسامح، والتعاون والتضحية والإيثار فيما بينهم، قولاً وعملاً، فكراً وسلوكاً، لأن الآثار السيئة السالفة لا تقتصر على الأولاد، بل تمتد جذورها إلى الآباء، فالولد المفضول، أو المظلوم، أو المضطهد في البيت، أو المنبوذ في أسرته، لا يحقد فقط على أخيه المفضّل أو المدلّل، بل يحقد على أبيه وأمه أولاً، وهذا يؤدي إلى العقوق وعدم الاهتمام ببر الوالدين، وإهمال حقوقهما عليه، ولما عاتب والد ولده على عقوقه، أجابه: «عققتني صغيراً فعققتُك كبيراً، وأضعتني وليداً، فأضعتك شيخاً»، ولذا نبه رسول الله ﷺ الآباء على هذه الناحية،

---

(١) رواه البيهقي عن أنس ﷺ مرفوعاً.

(٢) رواه أبو داود والحاكم.

فقال: «رَحِم الله والداً أعان ولده على برّه»[1].

كما أن المعاملة الجائرة بين الأولاد تدفع الولد إلى العزلة عن الأهل، والابتعاد عن البيت، وتكوّن عنده عقداً نفسية تدفعه للهرب من واقعه، والتفتيش عن السبل والمجالات التي تسد هذا النقص عنده، وتلبي مطامعه، وتظهر كيانه، فيلجأ إلى الطريق والشارع، والحديقة والأماكن الموبوءة، ويلتحق برفاق السوء، ويقع فريسة في أيديهم، ويعتصم بالأزقة وأماكن اللهو وغيرها.

وإن تمييز أحد الأولاد يضرّ بالطفل المفضّل نفسه من الناحية التربوية، لأنه يركن إلى والديه، ويقل اعتماده على نفسه، وتسوء علاقته مع إخوته وزملائه وجيرانه ويأنس بالامتيازات لنفسه، ويظنها حقاً له، ويريد أن يفرض على الناس دلاله ومشاعره بشكل فج، فيصطدم مع الواقع، ويبوء بالفشل في مستقبل حياته، ويعجز في الاعتماد على نفسه، كما يضر بالتمييز ببقية الأولاد وتمتلئ قلوبهم بالأسى، ويشعرون بالظلم والفساد والانحراف من أقرب الناس إليهم.

٢- **العطية والنفقة**: فمن الثابت عقلاً وفطرة أن يسعى الوالد على ولده الصغير، وينفق عليه، وجاء الشرع الحنيف يؤكد ذلك ويقرره، ويرغب بالنفقة على العيال والأولاد والأقارب وذوي الرحم، وأنها أفضل النفقات، لما روى أبو هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رقبة، ودينارٌ تصدَّقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أعظمُها أجراً الذي أنفقته على أهلك»[2]، وفي رواية «أفضل دينار ينفقه

---

(١) رواه أبو الشيخ في «الثواب» عن علي كرم الله وجهه.

(٢) رواه مسلم.

الرجل: دينارٌ ينفقه على عياله، ودينارٌ ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينارٌ ينفقه على أصحابه في سبيل الله»[1]، ثم بيَّن رسول الله ﷺ فضل الإنفاق على العيال، وأنه يجب أن يقترن بالتربية، وحذّر الآباء من الإثم العظيم في تضييع أولادهم الذين ينفقون عليهم، فيقول عليه الصلاة والسلام: «كفى بالمرء إثماً أن يُضيِّع منْ يَقُوت»[2].

وهذا الإنفاق يجب أن يكون موزعاً توزيعاً عادلاً، وأن تكون العطية للأولاد متساوية، فإن تحيز لأحدهم، فقدم له عطية دون بقية أولاده، أو أعطى أحدهم أكثر من الآخر، فقد وقع في الحرام[3]، ويستحق العذاب، وينقلب عمله من بر إلى إثم، ومن طاعة إلى معصية، ومن تقرّب إلى جفوة.

ويرشد الرسول ﷺ إلى وجوب العدل والمساواة بين الأولاد، فيقول عليه الصلاة والسلام: «اعدلُوا بين أولادكم في العطايا، كما تُحبُّون أن يعْدلوا بينكم في البرّ»[4]، وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه أن أباه أعطاه عطية، ولم يعطِ بقية إخوته، وأراد أن يشهد على تصرفه رسول الله ﷺ، فسأله عليه الصلاة والسلام: «هل أعطيت أولادك مثل هذا»؟ قال: لا، فقال عليه الصلاة والسلام: «فاتَّقوا الله، واعدِلُوا بين أولادكم» وفي رواية: «لا تُشْهدني على

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والحاكم.

(٣) هذا هو الحكم الشرعي التكليفي، أما حكم التصرف (أي ترتب الأثر عليه) فقد اختلف فيه العلماء على ثلاثة أقوال، فقال الأكثرون: إن التصرف باطل وحرام، وقال بعضهم: إنه صحيح لكنه حرام ويجب الرجوع فيه، لأنه مال خبيث، وقال آخرون: إنه صحيح وجائز مع الكراهة فقط.

(٤) هذا الحديث رواه مسلم.

جور، وإن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم» وفي رواية أخرى: «يا بشير، ألك ولد سوى هذا»؟ فقال: نعم، قال: «أكلّهم وهبت له مثل هذا»؟ قال: لا، قال: «فلا تُشْهدني إذن، فإني لا أشهدُ على جوْر»، ثم قال: «أيسرُّك أن يكونوا إليك في البرِّ سواء»؟ قال: بلى، قال: «فلا إذن»[1].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ساوُوا بين أولادِكم في العَطية، فلو كنتُ مفضِّلاً أحداً لفضلتُ النساء»[2].

٣- **الإرث**: وهو ما يأخذه الورثة من تركة الميت، وقد بيّن القرآن الكريم أحكام المواريث، وتولى رب العالمين القسمة العادلة بين الورثة كاملة، وبدأ آيات الميراث بقوله عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١]، وهذه الوصية في أصلها وقائية، لتوفر الشفقة الفطرية عند الوالدين، ولكنهما قد تكون علاجية ومقصودة لمن تنحرف فطرته، وتقتل غريزته وعواطفه، فيفضل بعض أولاده على بعض، مع أن صلته به واحدة، يقول ابن كثير: «أي يأمركم بالعدل فيهم، فإنَّ أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث»[3].

واستنبط بعض العلماء من الآية أن الله تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها، مع ما تتصف به الأم من الشفقة والعطف، والرحمة والحنان، على ولدها، وهو ما صرّح به رسول الله ﷺ: «اللهُ أرحمُ بعبادِه من هذهِ بولدِها»[4].

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط.

(٣) تفسير ابن كثير ١/٤٥٧.

(٤) رواه مسلم عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً ومطوَّلاً.

وجاء في آيات المواريث ما ينبِّه إلى وجوب الالتزام بها، والتقيد بتفاصيلها، لتأمين العدالة الكاملة، وتحقيق المساواة، وإلا وقع الانحراف والجوْر، والعصيان والفسق، لأن الخروج عن أحكام الميراث، أو التحايل في توزيعها، يعني عدم الرضا بما قسم الله تعالى أو حكم به، وأن الفاعل يريد أن يغيِّر حكم الله تعالى، ويضادَّ الله في ذلك، يقول ابن كثير في تفسير الآية التي جاءت بعد آيات المواريث: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ (أي فلم يزد بعض الورثة، ولم ينقص بعضها بحيلة أو وسيلة، بل تركها على حكم الله وفريضته وقسمته) يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النساء: ١٣].

ويخطر في ذهن الأب أو الأم عند تفضيل أحد الأولاد أنه يخصّه بميزة فريدة، وأنه أكثر رحمة له وعطفاً عليه من بقية الورثة، وكأنه متكفل له بالرزق في الحياة، ولكن الحقيقة والواقع أن الفكرة سطحية، وأنها قصيرة النظر، وأن الرحمة الحقيقية، والسعادة الكاملة للأولاد، والوالدين، والناس جميعاً، تنحصر بالسير حسب الأحكام الشرعية، واتباع منهج رب العالمين في القسط وتوزيع الحصص، وبه تتحقق العدالة المطلقة، لأن الله تعالى هو الرازق حقيقة، وأنه يرزق الأولاد، ويتكفل بهم، كما يرزق الآباء والأمهات، قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، والله سبحانه أرْحَم بعباده من الأب والأخ، بل أرحم بهم من الأم الرؤوم، كما سبق في الحديث.

ويتوهم بعض الناس أن المساواة والعدالة بين الأولاد تظهر في أن في إعطاء البنت مثل نصيب الابن، وإعطاء الأخت كالأخ، والواقع أن المساواة الحقيقة، والعدل المطلق، هو في توزيع رب العالمين، وأن التفاوت بين الذكر والأنثى منوط بالواجبات الملقاة على عاتق كل منهما، وبالأعمال المكلف بها الرجل، فالابن الذي يأخذ مثلي البنت يكلف بدفع المهر لزوجته، والقيام بالنفقة على أولاده وأهله وإخوته وأقاربه، وعليه أن يسعى للتكسب والتجارة، والعمل وتحمل المشاق، أما البنت فإنها تأخذ نصف نصيبه، وتضيف إليه المهر الذي تأخذه من زوجها، دون أن تكلف بنفقة أو تلتزم بواجب، بناء على القاعدة الشرعية: الغُرْمُ بالغُنْم، وكذا الأخ مع الأخت، وأن الشريعة سلكت في ميراث المرأة مسلكاً وسطاً بدون إفراط ولا تفريط، وبما ينسجم مع بقية تعاليم الإسلام في الفرد والأسرة والمجتمع، وأن بعض الشرائع تحرم المرأة من الميراث، وبعضها تساويها مع الذكر مع تحميله المسؤولية والالتزامات غالباً دونها، أو تعفيها من كثير من الواجبات.

وهذا المبدأ: الغرم بالغنم مطبق الآن في جميع قوانين العالم وشرائعه، مع الارتياح له، والشعور بعدالته، والاطمئنان النفسي بتطبيقه، وعدم الاعتراض عليه، كما لو وجدنا موظَفْين يحملان شهادة واحدة، ويعملان في وزارة واحدة، ويمارسان عملاً متماثلاً، وهما في سن واحدة، فيستحقان راتباً واحداً، وهو الراتب الأصلي، ثم يستحق أحدهما علاوات كثيرة زيادة عن زميله، بسبب التكاليف والواجبات الملقاة عليه، فيحصل مثلاً على التعويض العائلي، والتعويض عن الأولاد، وتعويض المناطق النائية، وتعويض غلاء المعيشة، وغير ذلك.

٤- **الوصية**: وهي تصرف مضاف إلى ما بعد الموت، وهي وسيلة مشروعة لأغراض نبيلة، وأهداف سامية، وزيادة في الأجر والثواب، ولكنها قد تستغل في غير ما شرعت له، لتصبح طريقاً مستوراً ومموَّهاً لتفضيل أحد الأولاد الوارثين، بالوصية له، للتحايل على نظام الميراث، أو بالوصية لبعيد مع حاجة الورثة للمال.

وهذا من أكبر الكبائر لما روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الرجل ليعمل، أو المرأة، بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت، فيضارَّان في الوصية، فتجب لهما النار، وقرأ أبو هريرة ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ...﴾ حتى بلغ ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وفي رواية الإمام أحمد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليعمل بعمل أهلِ الخير سبعين سنة، فإذا أوصى وحاف في وصيته، فيُختم له بشر عمله، فيدخل النَّار، وإن الرجلَ ليعملُ بعملِ أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيُختم له بخير عمله، فيدخل الجنّة، قال: ثم يقول أبو هريرة: «اقرأوا إن شئتم: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾»[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضرار في الوصية من الكبائر، وذلك لأن الوصية شرعت أمام المسلم لفتح باب الطاعة والأجر والثواب، ولترغيبه بالأعمال الصالحة، وليختم حياته بالخير، وقد حدد الشارع الحكيم الوصية بأنها لغير الوارث، فقال رسول الله ﷺ: «لا وصيةَ لوارث»[2]، وحصر الشرع مقدار

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والإمام أحمد.

(٢) رواه الدارقطني والترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد وغيرهم في جزء من حديث.

الوصية في حدود الثلث، واعتبر أن الثلث كثير أو كبير، وبين رسول الله ﷺ الحكمة من ذلك بقوله لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما زاره في مرضه: «إنَّك إنْ تَذَرَ ورثَتَك أغنياءَ خيرٌ من أنْ تذرَهم عالةً يتكففون النَّاس»[1].

وأكد القرآن الكريم عدم الضرر بالوصية، وحرم الضرار فيها في الحياة، وعند الموت، ويتأكد هذا التحريم عند الوصية للوارث، لتفضيله على بقية الورثة، لأن حصة الوارث مقدرة في الشرع، وسينال نصيبه العادل من التركة.

ونخلص من ذلك إلى بيان النتائج الأساسية التالية، وهي:

النتيجة الأولى: يجب التسوية بين الأولاد في جميع المجالات المعنوية والمادية، وفي مختلف جوانب الحياة العائلية، لأن المساواة بين الأولاد هي شرع الله الحكيم، ودينه القويم، وذلك لتحقيق هدفين ينادي بهما الإسلام، ويحرص عليهما:

الهدف الأول: التزام المنهج التربوي الرباني الذي يصلح الفرد والمجتمع، وأن القرآن الكريم يتضمن منهجاً تربوياً فريداً في التربية، أوضح فيه للناس الصراط المستقيم في الحياة، ووضع النقاط على الحروف لكل ذي عينين، فمن اتبع منهج الله حاز شهادة الإيمان، وسعد في الدنيا، وفاز في الآخرة، ونجا من وساوس الشيطان، ومن أهمل شرع الله خاب وخسر في الدنيا والآخرة، ونال واستحق الخزي والعار ودخول النار.

الهدف الثاني: التزام العدل، والوقوف عنده، وهو ما قامت به السماء والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا، ونزلت من أجله الكتب، وبُعثت لتحقيقه الرسل، وسُنّت للحفاظ عليه الشرائع، وأقيمت لصيانته الدول

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم وأبو داود والنسائي والحاكم.

والأنظمة والحكومات، وهذا العدل ينطلق من أول مؤسساته، وجوهر وجوده، في البيت والأسرة، وأن الوالد في الحقيقة يمثل القاضي الذي يجب أن يسوي بين الجميع، ويعدل في القسمة، ويعطي كل ذي حق حقه، وأن الأم تعتبر أول قاض في التاريخ والبشرية، لتقيم العدل بين أولادها، وفي أرجاء بيتها.

النتيجة الثانية: أن تمييز أحد الأولاد حرام، مهما كانت الأشكال والصور، كأن يكون التمييز بالعطية، أو التحيز في الناحية المادية والمالية، وقد يتبلور في المعاملة الأخلاقية والسلوك المعنوي، وكل ذلك قد يكون بتفضيل الولد البكر بالميراث أو الرعاية، وقد يكون بتفضيل الذكر على الأنثى، أو العكس، وقد يكون بتفضيل ابن الزوجة الجديدة، وقد يكون بتمييز البنت الجميلة على أخواتها، وقد يكون بزيادة الرعاية للابن الأصغر على بقية الأولاد، وقد يكون بالوصية لأحدهم، أو بزيادة حقه في الميراث، أو بدفع جميع ما يملكه له، أو بالبيع الصوري، أو بتخصيصه بجزء من المال، ثم يشارك بقية الورثة في التركة، إلى غير لك من الصور والأشكال التي لا تدخل تحت حصر، وقد تكون خفية، ويعجز عنها القضاء الدنيوي، والمتابعة الظاهرية، ولكن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ويعلم السر وما يخفى، ويطلع على ما تكنُّه السرائر، وينظر إلى الأعمال والقلوب.

النتيجة الثالثة: أن تمييز أحد الورثة بنصيب من المال، أو الوصية له بحصة معينة عند قسم الميراث (وهذا لا ينفذ إلا برضاء الورثة بعد الوفاة) فذلك جائز، إذا وجد المسوغ المقبول شرعاً وعقلاً وواقعاً، كتمييز الطفل الصغير بقدر من المال، لرعايته وتربيته وتعليمه وتزويجه، ليلحق بإخوته الكبار الذين قطعوا هذه المراحل، ومثل تمييز أحد الأولاد لمرض، أو عاهة، أو فاقة حلت به، فهذا لا حرج فيه، مع تطييب نفوس الباقين، والله يعلم المفسد من المصلح.

النتيجة الرابعة: أن الشريعة الإسلامية أقامت الموازين الواضحة الدقيقة لتحديد الإيمان وتمييزه عن الكفر والفسوق والنفاق، ومن أهم معايير الإيمان الالتزام بما جاء في الكتاب والسنة من الأحكام الشرعية التي تعتبر قنطرة الانتقال من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى الإيمان، ومن الشرك والوثنية إلى الإسلام، ومن الضلال إلى الهدى، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فمن التزم بشرع الله ودينه فهو مؤمن، ومن أعرض عنه فهو كافر وفاسق، ومن أراد الهدى والتقوى والورع ومرضاة الله فعليه التقيد بحدود الله، والالتزام بما نزل على رسول الله ﷺ، وإلا وقع في شِراك الشيطان، وفي شِباك الضلال والجاهلية، ولا يغتر أحد بما يزيِّفه أعداء الله، فكثيراً ما ضل العقل البشري في التشريع وبيان الحلال والحرام، وكثيراً ما ضلت العدالة الوضعية طريقها في إحقاق الحق، وإقامة العدل، وصيانة الحقوق، من هنا وجدت الحكمة في ابتعاث الرسل وإنزال الكتب لبيان الحقوق[1].

نسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما يعلمنا، وأن يردنا إلى شريعتنا رداً جميلاً، وأن يرزقنا العمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ، والالتزام بالصراط المستقيم. والحمد لله رب العالمين.

(١) يقول الشاطبي: «المقصد الشرعي من وضع الشرائع إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عَبْداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً» الموافقات ٢/١٢٠.

ثامن عشر: الوداع واللقاء

الحمد لله رب العالمين المتفرد بالبقاء، والذي يغير ولا يتغير، والصلاة والسلام على رسول الله، المعلم الأول، والمربي المثالي، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإننا في نهاية العام الدراسي نحتفل بنجاح الخريجين، وتوديعهم، بعد أن أمضوا درحاً عزيزاً من حياتهم على مقاعد الدراسة، يتلقون العلم، ويتزودون بالمعرفة على أيدي العلماء والمربين الذين لا يدخرون وسعاً في العطاء، وترتبط بينهم وبين الطلبة رابطة الأبوة الروحية والأخوة الغالية، ويحرصون على تزويدهم بأكبر قدر من العلم والمعرفة، ليكونوا امتداداً لهم في الحياة، والعطاء، والعلم، وتواصل الأجيال، وليحملوا عنهم رسالة الحضارة والثقافة طوال أيام الجامعة، مع ما تحمله من شذرات يانعة، وقطوف دانية، وآمال طموحة، ومشاعر لطيفة، وأهداف نبيلة، ثم يصلون إلى باب التخرج، ليكون الوداع والفرقة.

ولكن هل هو وداع دائم ومنقطع؟ إننا على أمل اللقاء مع أحبتنا الخريجين في مجالات عدة، **أولها وأهمها** في مجال الدراسات العليا التي تزدهر في جامعة الشارقة ليعود الخريجون إلى مقاعد الدراسة بلون مختلف، وفكر متقد، وعقل واع، وثقافة أوسع، وأسلوب جديد في التحضير والدراسة والبحث والآفاق العميقة، **وثانيها** في اللقاء مع أحبتنا الخريجين في مجال الحياة الرحبة الواسعة، كل في اختصاصه، وكل يحمل رسالة كليته التي تخرج منها ليخدم الأمة والمجتمع والإنسانية، وخاصة طلبة الشريعة الذين يحملون الدعوة ليقوموا بأدائها مع أساتذتهم ومدرسيهم على صعيد واحد، ولينضموا إلى ركب العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ويرفعوا راية الإسلام خفاقة، ويبينوا للناس

أحكام الله تعالى التي أنزلها على رسوله، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولتحقيق السعادة لهم بتأمين مصالحهم وجلب النفع لهم، ورفع الأذى والشر عنهم، ليكونوا في مظلة الشرع الحنيف، وفي كنف الله الظليل، وتحت رعايته الدائمة، فيفوزوا في الدنيا والآخرة، ويعمل الخريجون والمدرسون في هذا المجال متعاونين متحابين متآخين، لأن العلم رحم بين أهله، ونسأل الله تعالى للخريجين التوفيق السداد، والحفظ والرعاية، وتحقيق الآمال والأحلام، والحمد لله رب العالمين.

تاسع عشر: طريقة تدريس الفقه الإسلامي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، ومعلم الناس الخير، والقائل: «إنما بعثت معلماً» وبعد:

فإن الفقه أحد العلوم الشرعية، ويدرس في جميع المدارس الشرعية، والمعاهد الدينية، وكليات الشريعة، ويشكو كثيرون من صعوبته في التدريس والتعليم، مما يوجب الاستعانة بالأساليب التربوية، والأسس الشرعية، والوسائل العقلية لتذليل دراسته، وتبسيطها، وتشويقها للطلبة، ولذلك أعرّف الفقه وأبيّن أهميته، والحاجة إليه، وطبيعته، وأقدم بعض الإرشادات والنصائح لتدريسه.

١- **تعريف الفقه:** هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبط من أدلته التفصيلية، وبعبارة أخرى: هو علم الحلال الحرام، أو الجائز والممنوع في الشرع.

٢- **أهميته:** إن تعلم القرآن الكريم والسنة الشريفة يهدف إلى معرفة العقيدة وزيادة الإيمان والثبات عليه وصحة الاعتقاد، ثم لمعرفة الأخلاق الفاضلة للالتزام بها، ثم لمعرفة الأحكام العملية في العبادات لممارستها، وفي المعاملات لتطبيقها، للأخذ بالحلال والكسب الطيب، وتجنب الحرام والمال الحرام، والسلوك الممنوع.

٣- **الحاجة إليه:** إن كل مسلم يحتاج للفقه، لمعرفته، فهو واجب إما عينياً على كل مسلم في بعض الأحكام، وإما فرضاً كفائياً في المعاملات المالية، والأحوال الشخصية، والاقتصاد، ونظام الحكم، والجهاد والسلم والحرب، ومعاملة غير المسلمين، ونظام المال، والتكافل الاجتماعي، وأحكام الأسرة التفصيلية في الزواج والطلاق والميراث والنسب وغيره.

٤- **طبيعة الفقه**: جاف، لأنه أحكام شبه مجردة، وتحتاج للحفظ، وإجهاد العقل والفكر.

٥- **النصائح والإرشادات لتدريسه**:

١. ربط الفقه بالواقع والحياة التي يعيشها الناس بضرب الأمثلة من الأفراد والمجتمع والمؤسسات والدول.

٢. بيان أهمية الفقه والحاجة إليه، كما سبق، لمعرفة كيفية العبادات، والمعاملات والزواج والطلاق.

٣. ربطه بالقرآن الكريم في الآيات التي جاءت به لتأثير القرآن العظيم على النفوس، وكذلك ربطه بالسنة الشريفة.

٤. بيان الحكمة والفائدة والمصلحة التي تعود على الإنسان من كل حكم، فما شرع حكم إلا لمصلحة كالوضوء، والعبادات، والمعاملات.

٥. مقارنة الحكم الفقهي بالقوانين والأنظمة والشرائع الأخرى، لبيان النتائج المهمة، وبضدها تتميز الأشياء، كالنظافة والتكافل.

٦. ربط الفقه بالحلال والحرام، وبما يجوز ومايحرم، ومايرضي الله تعالى ومايغضبه، ونتيجة ذلك في الدنيا والآخرة .

٧. ربط الفقه بالعقيدة والإيمان للاتصال بينهما، وربطه بالأخلاق في البيع، والعبادات، والأسرة والمجتمع.

٨. رد الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام عن الأحكام الشرعية الكلية كالرق، أو الجزئية كشهادة المرأة وميراثها.

٩. ربط الفقه بالترغيب والترهيب حسب منهج القرآن، ومافيه من ثواب وعقاب.

١٠. استعمال المحاورة مع الطلاب والناس، والسؤال والجواب، وطرح المشكلات وبيان كيف يحلها الحكم الشرعي.

١١. اختيار المناسبات لتدريس الأحكام كرمضان للصيام، وشوال للحج، والأزمات المرضية والوباء لتحريم الزنا والخنزير مثلاً.

١٢. استعمال وسائل الإيضاح والأدوات المساعدة كالكتاب والسبورة والكمبيوتر والفيديو والتلفزيون والكاميرا.

١٣. التعريف الموجز ولو بعبارة وجملة عن علماء الفقه، والأئمة، وبيان سيرتهم وفضلهم ومكانتهم.

١٤. التعريف بكتب الفقه، الأصيلة والمعتمدة، والموسعة والمختصرة، والقديمة والمعاصرة.

١٥. ما يراه المدرس من وسائل إيضاحية أخرى.

والحمد لله رب العالمين